د. مؤنسة بشير العوف

مَدّ بلا جَزر

رواية

بيروت ١٩٩٢

دار المنار

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

بدأت كتابتها صباح الجمعة ١٠ شباط ١٩٨٩
تمت صباح الأربعاء ٢٦ نيسان ١٩٨٩
(٣٣١٢٥ كلمة)

دار المنار
بيروت - لبنان - ص.ب: ٦١٣٧-١١٣ - هاتف: ٨١٤٣٦١

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهداء

إلى من عرفت معهما الشعور بالأمان
في زمن عز فيه الأمان.
إلى أمي وأبي.

مؤمنة

كان عاصم يتعجب من تناقض مشاعره تجاه هذا الفرع من العائلة.. عندما يفكر بها بعيداً عنها يشعر بالبون الشاسع بين وضعها المادي والإجتماعي وبين الفروع الأخرى .. فيشعر بضيق النفس والإختناق.. وتنتابه هواجس شريرة، ولكنها تتبخر كلها عندما يدخل إلى البيت وتلقاه خالته وزوجها، وأولاد خالته بوجوه باشة، وترحيب يشعر أنه صادق وحقيقي. فيحس بلسعة تأنيب الضمير على هواجسه الشريرة تلك.

هذه المشاعر المتناقضة عند عاصم، كان يشاركه فيها غيره من أقرباء العائلة الأخرين، حتى بعد أن اختارت إسعاف خانم وعزت بك أزواجاً لبناتهما وزوجات لأبنائهما من قريبات وأقرباء العائلة.

* * *

تزوج عاصم من جمانة إبنة خالته، وتزوجت أخته الصغرى هيام من حسام ابن خالتها وأخي جمانة.

مشكلة جمانة جواد وحسام جواد هي أنهما وسط، إلا أن مقولة خير الأمور الوسط لم تكن تنطبق عليهما. فلا هما يحسبان

مع الأولاد الكبار في العائلة فينالهما التكريم اللازم بإعتبارهما من الكبار، ولا هما من الصغار فيصيبهما ما يصيب الصغار من دلال وغنج ومحاباة وتغاضٍ عن الذنوب.

– جمانة يا حبيبتي لقد كبرت، اصبحت صبيّة، إجلي الصحون

فترد جمانة بنزق وعصبية:

– عند جلي الصحون، جمانة أصبحت صبيّة، وعند السهر والزيارات جمانة ما زالت صغيرة.

جمانة بحكم عمرها المتوسط بين خمسة أخوة ذكور، إثنان أصغر منها، وثلاثة أكبر منها، كانت ميولها في اللعب والهوايات مثل ميول إخوتها الذكور.. مثلها الأعلى سوبرمان، وزورو العجيب، وطرزان، ورامبو.. كانت تشارك إخوتها في إعادة تمثيل ما يرونه في الأفلام وما يقرأونه في قصص الأطفال.. فالحبال تلتف حول خصر كل منهم .. وقطعة قماش مستطيلة تلتف من جهة الضلع الأصغر حول الرقبة وتتدلى على الظهر.. وإذا لم يكن هناك قطعة قماش مناسبة، فلا بأس بمنشفة الوجه واليدين، وذلك لإستكمال شخصية السوبرمان، والقضبان

الخشبية، وغالباً ما تكون الضلع المستقيم السفلي لعليّقات الملابس، وهذه هي السيوف لمقارعة الأعداء .. وكانت غرف البيت بالأسرة والمقاعد هي تارة الغابات إلى تدور فيها معارك طرزان، وتارة الفضاء الذي يحلق فيه السوبرمان.. هذا هو عالم جمانة وإخوتها في حال الحركة، أمّا في حال الهدوء والسكينة، فكانوا يجلسون في غرفة نوم الصبيان، ويكون عاطف هو الحكواتي الذي يخترع القصص البطولية العجيبة، حيث يقارع الحيوانات الخرافية وخاصة الديناصور، ويتغلب عليها.. ويكون دائما هو البطل الصنديد الذي يقوم بكل المعارك .. وينقذ الأميرة.. ويحقق العدالة.. وينصف المظلوم..

ويلتف حوله الأولاد مأخوذين منبهرين.. ينصتون وكأن على رؤوسهم الطير.. وقد ينضم إليهم في جلساتهم تلك بعض أصدقاء المدرسة أو الأقرباء.. كانوا يسمّون هذه الجلسات «تكلّم».. وقد يصادف أحياناً إذا غضب عاطف من أحد أخوته أن يحرمه من الإستماع ل «التكلّم».. وصارت هذه التسمية اصطلاحاً متعارفاً عليه بين أفراد العائلة كبارها وصغارها بما فيهم الوالدان...

حتى أن إسعاف خانم عندما كانت تضيق بضجيج الأولاد، تغري عاطفاً بمبلغ من المال إضافي، زائد عن المصروف اليومي للولد قائلة:

– الله يرضى عنك يا عاطف، خذ إخوتك وإحك لهم «تكلّم»...

حسام وجمانة يشعران كانهما مستعبدان لعاطف، مقهوران.. يشعران أنه يمسك برقبة كل منهما ولا يستطيعان لها فكاكا.. يحدث ذلك حين يغضب عاطف ويحرم أحدهما أو كليهما من التكلم.. فتسودّ الدنيا في عينيه.. وقد اضطرت جمانة يوماً أن تختبيء تحت السرير طوال مدة «التكلّم» كي لا تحرم نفسها هذه المتعة الغامرة.. وكانت الطامّة الكبرى، حين اكتشف عاطف أمرها..

وعندما كبرت قليلاً، فكرت أن تتخلص من شعورها بالعبودية له، وأن تفتح«تكلما» خاصاً بها. وهكذا كان.. وأصبحا متنافسين في مهنة واحدة.

هذا هو عالم جمانة الطفولي... وكان حسام الذي يكبرها مباشرة هو أقرب أخوتها إلى نفسها.. أمّا عاطف، صاحب «التكلّم» والذي يكبرهما كلهيما فهو فتى العائلة المدلل، الذي يغار على جمانة، ويمنع أيّاً من الصبية الآخرين في العائلة من الوقوف بجانبها، أو إطالة الحديث معها، وكان تصرّف عاطف هذا هو الوحيد الذي يشعرها بأنها بنت لا صبي.. وأكثر ما يحدث ذلك في الأعياد، عيد الفطر، وعيد الأضحى. حيث تطلق للأولاد حرية الذهاب والإياب، والخروج والدخول، على غير العادة المألوفة في العائلات المتوسطة والميسورة... فيقضون نهارات العيد كلها، ثلاثة أيام الفطر، وأربعة أيام عيد الأضحى.. يقضونها خارج البيت.. يرافقهم بعض الأصحاب الذين يماثلونهم في العمر... ولكن هؤلاء الأصحاب كانوا في أكثر الأحيان من الأقرباء.. أولاد الخالات أو الأعمام منهم عاصم وهدى وهيام وحنان وأيمن، فيحضرون حفلات العروض السينمائية قبل الظهر وبعد الظهر.. ويذهبون إلى الملاهي المتيسّرة وخاصة الأراجيح التي كانت تنصب بمناسبة العيد في أكثر الشوارع والأحياء.

كان الأولاد ينتظرون أيام العيد بصبر نافذ وشوق لائب.. يعدون أيام السنة وشهورها بإنتظار العيد.. كان العيد عيداً حقيقياً بكل ما يتصوره المرء للعيد من بهجة وجدّة.. فهو شيء فوق كل تصور وأبعد من أي إحتمال..

وجاء العيد في إحدى السنوات، وكالعادة أخذت جمانة تعدّ الخطط والمشروعات مع إخوتها.. إلى أين سيذهبون أولاً.. ومن سيرافقون.. وماإلى ذلك.. وصبيحة العيد إرتدوا جميعاً ملابس العيدوتهيأوا للخروج.. طبعاً قبل ذلك توجهوا نحو الوالدين ليأخذوا العيدية.. نظر الأب إلى جمانة قائلاً:

– وأنت يا جمانة هل ستذهبين مع إخوتك؟

– نعم.

–ألا تعلمين.. لقد قالت لي أمّك... إنّك كبرت وأصبحت صبيّة..

فعلاً شعرت جمانة ببعض التغيير في جسدها، ولكن لم يخطر لها أن ذلك يعني عدم الخروج للعيد.. ولكن عندما واجهها والدها بهذا السؤال ووضعها أمام هذه الحقيقة.. شعرت فعلاً أن شيئاً فيها تغيّر..

وتغيّرت جمانة... من الداخل وبكامل إرادتها وحبّها لهذا التغيير.. أصبحت رصينة جداً، هادئة جداً.. قليلة الكلام.. بطيئة الحركة.

انتهى عهد الطفولة فجأة وبدون مقدمات، هكذا شعرت جمانة أن حياتها توقفت في دمشق فجأة وبدون مقدمات، وانتقلت العائلة إلى بيروت.

- ٤ -

كانت الروزنامة المثبّتة على تابلو السيارة، مرسيدس حمراء، تحمل تاريخ ٢٨ نيسان ١٩٦٣، وكانت السماء ترش زجاج السيارة برذاذ خفيف من المطر الربيعي، وكان نور الشمس يفتح لنفسه نوافذ بين الغيوم البيضاء المتناثرة على طول الطريق الممتد بين دمشق وبيروت، ويرمي بقع الضوء، فتتساقط على قمم الجبال وفي أعماق الوديان، وتتراقص الظلال فوق السهول الصحراوية المترامية، هذه السهول التي تشكل القسم الأكبر من الطريق، قبل الوصول إلى المصنع، نقطة الحدود الفاصلة بين سورية ولبنان.

كانت سحر تجلس في المقعد الخلفي، محتضنة أصغر أخواتها، هالة، بينما إحتلت كل من شقيقتيها مهى وهند بقية المقعد. وجلس في المقعد الأمامي السيد نبيل وكيل الوالد، وإلى جانبه

حسام الأخ الأوسط. كانت سحر تسرح حيناً ملاحقة الظلال والأضواء وتستمتع بالأنسام الربيعية.. وتارة تتابع بعينيها سيار مرسيدس سوداء تنهب الطريق أمامها، وذلك في محاولة ألا تضيع منها أو تغيب عن مدى نظرها. تلك السيارة تضم إخوتها سعيد وعاطفاً ومحسناً وأحمد وجمانة.

لقد مضى الآن خمسون يوماً على قيام حركة ٨ آذار، التي أطاحت بحكم الإنفصال في سورية، وأعلنتها حرباً شعواء على جميع رجالاته، وهم في الوقت نفسه، رجالات سورية منذ فجر الإستقلال. وبوشرت على أثرها حملة إعتقالات وأعلنت أحكا المصادرة والعزل السياسي على رئيس الجمهورية ورئيس الحكو ومجلس النواب، وجميع الوزراء والنّواب وكل من كان ذا أث نافذ مدنياً وعسكرياً خلال عهد الإنفصال الذي قام في ٢٨ أيلول ١٩٦١ واستمر حتى ٨ آذار ١٩٦٣. وأحكام المصادر والعزل هذه شملت كل من قدم دعماً معنوياً لهذا العهد كرجال الصحافة والفكر أو دعماً مادياً كرجال الإقتصاد من صناعيين وتجار.

وكان والد جمانة صاحب إحدى الصحف الأربع الكبرى

في دمشق، وكان من أعنف الصحفيين الذين حملوا لواء العداء لعهد عبد الناصر، والعمل على شد أزر العهد الجديد. لذلك كانت حصته من نقمة أبطال ٨ آذار تُعَد بين أوفر الحصص. فقد صودرت أمواله المنقولة وغير المنقولة، وهو على كل حال لم يكن يملك غير دار للطباعة، وإمتياز جريدته وأثاث بيته، وعائلة مؤلفة من زوجة وعشرة أولاد خمسة ذكور وخمس إناث. وقد صودرت المطبعة وأوقفت الجريدة، وختم المكتب الذي يقع في الطابق الثاني من البناء الذي تقع فيه المطبعة بالشمع الأحمر. كما أنّه حكم عليه بالعزل السياسي لمدة عشر سنوات، بدون محاكمة.

وصبيحة صدور هذه الأحكام ذهبت سحر إلى الجامعة، فقد كانت في السنة الثانية من كلية الآداب، ذهبت كي تكسر طوق الرهبة، وتواجه مباشرة العيون المفتوحة، تلافياً للخوف من مواجهة الناس الذي يولده طول الإحتجاب. وكان أول من صادفته صديقتها ندى التي تعودت أن تلتقيها كل يوم في محطة المرابط في المهاجرين، هذه المحطة التي تتوسط الطريق بين بيتها الكائن في شارع عدنان المالكي، وبيت صديقتها في آخر الخط،

خط الترام، الجادة الأولى من المهاجرين. عندما صعدت سحر إلى الباص جلست مباشرة في المقعد الفارغ إلى جانب ندى بعد أن ألقت عليها تحية الصباح... شعرت سحر أن ندى تسدد إليها بين الفينة والفينة نظرات متفحصة، تحاول بها أن تستشف ما تخفيه سحر دون أن تبادرها بأية كلمة. إلا أن سحر سارعت بسؤالها عمّا إذا سمعت أخبار التلفزيون أمس. وتابعت قائلة الحمد لله أن والدي في جنيف الآن، لقد غادر قبل الإنقلاب باثني عشر يوما، تلبية لدعوة من الحكومة الليبية. وعندما سمع وهو في طريق عودته نبأ الإنقلاب ذهب إلى جنيف. إسترخت أعصاب ندى المشدودة، وقالت:

– إذن ليس هنا .. الحمد لله.

لم تستطع سحر أن تذهب إلى الجامعة أكثر من يومين آخرين. فقد كان الجو ثقيلاً يجثم على صدرها، وكانت دائماً مشدودة الأعصاب.. تحاول أن تتظاهر باللامبالاة وبعدم الإهتمام كي تتفادى أي نظرة عطف أو إشفاق.

أمّا مهى، وهي الإبنة الثانية للعائلة، فقد كانت في الصف

الحادي عشر وكانت لا تزال تذهب كل صباح إلى مدرستها.. إلى أن إستبقاها أستاذ اللغة العربية ذات صباح بعد الدرس وسألها فيما يشبه الهمس:

– أين والدك؟

– إنّه في جنيف.

– لقد قرأت في صحف بيروت رسالة توضيحية منه حول أحكام المصادرة وحول أحداث دمشق.. هل هو حقاً في بيروت.

– لا .. إني متأكدة إنه في جنيف.

– حاولوا أن تتحرّوا وتتأكدوا إن كان في بيروت أم لا.

ولكنه حتى ذلك الوقت ما زال في جنيف، فقد وردتهم منه عدة رسائل مصدرها جنيف ليستفسر عنهم ويطمئن عليهم.

في تلك الأثناء كان بيتهم لا يخلو من الزائرين والمستفسرين من الأهل والأصدقاء والمعارف وقد كانوا كثراً. كان فيهم الكثير من المحبّين الأوفياء، إلا أن الأمر لم يخل من بعض الشامتين.

ولم يمض على الإنقلاب شهر حتى وردت رسالة من الوالد في جنيف يطلب فيها من زوجته أن توافيه إلى هناك. وفعلاً

- ١ -

نهضت جمانة في الصباح، وغادرت فراشها باكراً. فالسنة الدراسية بدأت والمدارس فتحت أبوابها، وعليها أن تهيّء ولديها الصغيرين للذهاب إلى المدرسة فهذه سنتهما الدراسية الأولى. ولكن في هذه الآونة عليها مهمّات أخرى. إذ أنها تستضيف أهلها في منزلها، أُمها وأباها وأختها الكبرى سحر، منذ شهر تقريباً.

أتوا من بيروت ليريحوا أعصابهم المتلفة عقب هدوء الحرب فيها، بعد اجتياح اسرائيل لها منذ أول الصيف عام ١٩٨٢. ومع أنه من عادتهم أن يغادروا بيروت في الإجازات الصيفية إلى أي بلد عربي أو أوروبي حيث توزع أولادهم، إلاّ أنهم عندما تشتد وطأة الحوادث في بيروت فإنهم يلازمون بيتهم

الواقع في رأس بيروت، ولا يتركونه، فهم لا يرحلون إلا عندما تكون الأحوال الأمنية هادئة تقريباً ويعلمون أو يكونون شبه متأكدين من أن باستطاعتهم العودة إليه. لأنهم كما يبدو يؤمنون بالحكمة القائلة: صبري على نفسي ولا صبر الناس عليّ.

وهم في هذه السنة آثروا المجيء إلى دمشق. وكان ذلك في العشر الأواخر من شهر أيلول بعد أن هدأت الحرب. وعاد الجيران إلى البناية التي فرغت في أثناء الإجتياح إلاّ من العائلة المثلثة الأضلاع. وعندما أزمعت عائلة عزت جواد على الرحيل تعجب الجيران منها وقالوا: الآن.. ستذهبون. بعد أن هدأت الأحوال. وكان الجواب:

– نذهب لرؤية الأهل والأقارب، ولنطمئنهم عنّا. فهم لا شك يظنّون أننا في عداد المفقودين، فالإتصالات مقطوعة. وهي فرصة، على كل حال، لتغيير الجوّ، وإراحة أعصابنا قليلاً.

تمنّى لهم الجيران سلامة الذهاب والعودة، وطمأنوهم أنهم سيعتنون لهم بالبيت، وسيسقون أصص الزريعة في أثناء غيابهم.

دخلت جمانة المطبخ فوجدت أختها سحر، تعدّ لنفسها شاي

الصباح . فهي لا تشرب من السوائل إلاّ الماء والشاي فقط، لا قهوة ولا حليب ولا أي شيء آخر بارداً أو ساخناً. فبادرتها محيّيةً بتحية الصباح، وقالت: لقد رأيت حلماً غريباً، واستيقظت مذعورة جداً، مع أنه ليس فيه أي مشهد مرعب أو مخيف.

أجابت سحر: خير إن شاء الله، ما هو؟

– لقد رأيت مدير عملك في بيروت، قد أتى إلى بيتكم، كما يأتي لزيارتكم عادة، حاملاً لك الصحف والمجلات التي تعملين عليها في مركز الدراسات.

– نعم وبعد

– ولكنه وجد أُمك وأباك فقط، وقالا له إنّك غير موجودة، وتعجّب كيف.. ولماذا.. واستيقظت أنا مذعورة... وعلى شفتي كلمات: ليست في البيت... لماذا لم يجدها.. أين هي...

أجابت سحر: ما هذا الحلم إنه لا يرعب، وماذا إذا لم يجدني.. ولكن أخبريني: هل الحلم واضح أو ضبابي؟

– لا.. إنه واضح جداً، وكأنه حقيقة لا حلم.

– بما أنك استيقظت مذعورة، والحلم واضح، فلا بد أن يعني شيئا ما، وربما يحمل إشارة لأمر مستقبلي.. ولكن ما هو؟ لا ندري... فأنت مرهفة الحس جداً، وأحلامك كثيراً ما تحمل نبوءة بأمور ستحصل. جعلها الله خيرا. تابعت سحر قائلة:

على ذكر مدير عملي، فإنني اشتقت لعملي جدا.. وإنني أعدّ الأيام كي أعود إلى بيروت، وأعود إلى العمل. في الحقيقة، يا جمانة، رغم كل الفواجع التي تحصل في بيروت، فإنني أحبّها ولا أطيق مغادرتها. ربما لأنني متعلقة بعملي. وعندما تحصل أية انتكاسات أمنية، فإنني لا أخاف من الموت أو الإصابات قدر خوفي من إضطراري للإنقطاع عن العمل. فأنت تعلمين أن العمل كان حلم حياتي منذ الصغر. وقد أنعم الله عليّ بهذا النوع من العمل الذي يوافق قدراتي وميولي، فهو يمكنني من القراءة المستمرة لكل ما هو جديد ومنوّع، وأعيش أحداث العصر وأعرفها بدقة.. وهو في الوقت نفسه ذو مردود مادي، ليس كبيراً، ولكنه يكفيني ما دمت لست مسؤولة عن أحد، ولا حتى عن حاجاتي الأساسية. فهو للمصروف الشخصي جداً.

وتابعت سحر حديثها مع جمانة قائلة:

– وأنت ألا تنوين أن تعملي؟ لقد مضى على زواجك ست سنوات، وها هما ولداك قد ذهبا إلى المدرسة، ألا تنوين أن تمارسي الصحافة والإعلام. بعد أن حصلت على الإجازة الجامعية. أتذكرين لقد.. رفضت أن تعلني خطبتك على عاصم إلا بعد تخرجك.

أجابت جمانة: في الحقيقة، بلى، وإن زوجي كما تعلمين، بحكم عمله تاجر كريستال، فإن زبائنه، كثيراً ما يكونون من ذوي المراكز. وقد جاءه منذ مدة زبون يعمل مدير مكتب وزير الإعلام في دمشق، وخدمه عاصم، وكانت بينهما صحبة. وقد حدّثه عنّي وعن رغبتي في أن أعمل في إحدى مؤسسات الدولة الإعلامية.. صحيفة أو وكالة أنباء. وأنا أفضل وكالة أنباء اختصاصي وكالات أنباء، كما تعلمين، ولكن إذا تيسّر لي العمل في صحيفة كبداية، فإنني طبعاً سأقبل مع الشكر.

– وهل تم شيء عملي في الموضوع؟ أم أنكم ما زلتم في مرحلة الكلام؟

قالت جمانة: نعم، طلب مدير مكتب الوزير أن أقدم طلباً خطيّاً للوظيفة، وهو سيرفعه للوزير في أسرع وقت. لأن الطلب

عندما يوقع عليه الوزير موافقاً لا بد أن يأخذ طريقه إلى التنفيذ.

– عظيم.. هذه فرصة لا تضيعيها.

– بالفعل.. فإنني قدمت طلباً منذ سبعة أشهر تقريبا، وتركت الأمر ولم ألاحقه. سأحاول أن أراجع المسؤولين.. وأنا متأكدة أن الوزير سيوافق أو بالأحرى وافق وانتهى الأمر.. فأنت تعلمين أن له صحبة مع والدنا أيضاً. وعندما يعرف أني ابنته سيوافق حتما. لا سيما أنني مستوفية لكل الشروط التي تؤهلني للعمل..

ردّت سحر: يبدو أنك واثقة جداً من نفسك... وتابعت قائلة:

– هل ترين.. كلما نجتمع، ننسى ما جئنا من أجله، ونستغرق في الثرثرة. عجّلي، فموعد ذهاب الأولاد إلى المدرسة اقترب. وأيضاً والداك سيستيقظان.. واليوم كما تعلمين هو آخر يوم لنا في دمشق. وغدا إن شاء الله، سنعود إلى بيروت. ونرى ما حلّ بها بعد الاجتياح.. يقولون إن الأحوال هدأت قليلاً بعد مقتل الرئيس المنتخب، وانتخاب أخيه مكانه.

ودّعت العائلة مثلثة الأضلاع، الأب والأم وابنتهما الكبرى

سحر، الأهل والأقارب في دمشق، واستقلوا سيارة أجرة من مركز الإنطلاق في وسط مدينة دمشق، وكان يرافقهم عاصم، زوج جمانة، الإبنة الوسطى للعائلة. وهو تاجر ثريات كريستال، وعمله يحمله على السفر إلى بيروت اسبوعياً تقريباً، وبيروت رغم الحرب والدمار الذي حلّ فيها، ظلّت مركزاً تجارياً مهمّاً لا غنى للتجار الدمشقيين عنه. إلا أنهم يعانون من التضييق القانوني على التجارة الحرة، وتجارة القطاع الخاص.

وعاصم، تاجر متوسط الحال، لا يعتبر من الرؤوس الكبيرة التي تشارك بعض المسؤولين، وتجني أرباحاً طائلة من تجارتها، بل كان يتدبر أمره ، مع تجار أقل درجة من الرؤوس الكبيرة في هذه المصلحة. بالإضافة إلى بعض النافذين الذين يؤمّنون له بضاعته المستوردة من تشيكوسلوفاكيا وإيطاليا، وخاصة ثريات ماريا تيريز، المطعمة بالبرونز، الغالية الثمن.

لذلك فإن عاصم، كان يرحب دائما بمرافقة حماه وحماته التي هي بالوقت نفسه خالته شقيقة والدته، في سفرهما من دمشق إلى بيروت، وبالعكس. فهو لديه دائما ما يقوم به من أعمال تجارية. وسفره هذا لن يكون بلا طائل، كما أنّه من جهة ثانية،

يهدىء من ثورة زوجته الدائمة ضده، واستنكارها لكثرة سفره إلى بيروت وبعده عنها وعن الأولاد الذي يستغرق أحيانا يومين أو ثلاثة في الأسبوع. فيقول لها: ألا تريدين أن تطمئني على أهلك، أو ربما يريدون شيئا من الشام، فأكون بخدمتهم.

إلا أنها بحساسيّتها الشديدة، تشعر في أعماقها أن هناك خطراً دائما يتهدده. وأن عمله قد يجرّ عليه المصائب، لا سيما أن بضاعته ليست كلها مسموحاً التعامل بها قانوناً، لأنها من الكماليات، ورسومها الجمركية عالية جداً.. إضافة إلى ذلك إن القوانين التجارية ليست مستقرة الإجراءات، فما هو مسموح به اليوم قد يصار إلى منعه بعد مدة. وقد تكون التغييرات مفاجئة بحيث لا يستطيع التاجر أن يأخذ حذره. لذلك كانت جمانة تتمنى دائما أن يغنيه الله عن هذه التجارة وعن السفر، وأن يرزقه القناعة والرضى والعمل المستقر.

وفي إحدى المشادّات بينه وبين زوجته، سألته:

– ماذا تريد من الدنيا... ها أنت قد اشتريت المنزل الذي نسكنه، ومحلك التجاري في أرقى أحياء المدينة، أصبح ملكك

وحدك، بعد أن تخلصت من كل الشركاء ومضايقتهم، ودفعت لهم حصصهم في المحل، ماذا تريد أيضاً؟.. هل عندك أمل أخير تريد تحقيقه؟

أجاب عاصم: نعم إن حلمي الأخير هو أن يكون لي ورشة صغيرة لصناعة الهياكل البرونزية، للثريات. وأقوم أنا بتصميمها... فأشبع هوايتي الفنية، وتكون في الوقت نفسه عملي الذي أعتاش منه. وتعلمين أنني منذ الصغر أحب هذا العمل وأمارسه.

وقد أصبحت الآن من أحسن خبراء ثريات الكريستال المطعمة بالبرونز. وكل تجار المدينة يستشيرونني، ونحن عادة نأتي بالهياكل المصنّعة من حلب، ونركب عليها الكريستال التشيكي والإيطالي حسب الطلب والموديل. وغايتي القصوى أن أقيم مصنعاً.. لا ليس مصنعاً بل ورشة صغيرة خاصة بي في دمشق. أصمم أنا نفسي لها، أشكال الثريات والكلوبات.

اقتنعت جمانة إلى حد ما بغايته، بل أحسّت بالراحة قليلاً.. فقد يكون لقلقها هذا نهاية، وقالت:

–يعني في النهاية ستستغني عن هذا السفر المتواصل، والتعرض الدائم للخطر، واضطرارك للتعامل مع النافذين، وحيازتك كريستال بدون فواتير قانونية، وصحبتك لسائقي السيارات العمومية...

– نعم .. إن شاء الله.انني الآن أقوم بعملية كبيرة جداً، فهي إمّا سترفعني إلى أعلى عليين، أو أنها ستقذف بي إلى أسفل السافلين لا سمح الله.

***

تابعت السيارة طريقها، واجتازت الحدود السورية – اللبنانية، بعد إجراء معاملات الخروج والدخول، وقبل الوصول إلى شتوره، إلتفت عزت جواد إلى صهره عاصم قائلاً:

– سيد عاصم، نريد أن نأكل بمعيّتك سندويش كفته مسّخنة، عند صاحبك في شتورة، كالتي أكلناها سابقاً.

– أمرك سيدي.

كان لعزت بك، وهو صحافي قديم وسياسي متقاعد، هيبة كبيرة. فهو كبير العائلة، وذو مركز إجتماعي مرموق، لا يحتله

أي من أفراد عائلة جواد، والعائلات التي تمتّ له بصلة نسب أو مصاهرة. فمجتمعهم العائلي، هو مجتمع تجار. فمنهم من يعمل في مال القبان، أي تجارة الأغذية على أنواعها. ومنهم من يعمل في مال الفاتورة، أي تجارة الأقمشة والملابس.

ليس بين أبناء جيله، في عائلة جواد وملحقاتها، من بلغ مرتبته في تحصيل العلوم اللغوية والدينية والقانونية. فقد كان ذا ثقافة متنوعة في مجال العلوم الإنسانية. استطاع بها وبقدرته على إقامة العلاقات العامة، أن يجد لنفسه مكانة فكرية وسياسية فاعلة في الهيئة الإجتماعية. وكان لصحيفته شأن كبير في أول عهد الإستقلال، عقب خروج فرنسا من سورية.

وهو على هيبته الشديدة، وحضوره المميّز في أي إجتماع عائلي، يبدو دائما متواضعاً، دمثاً، خدوماً، لا يرد طالب حاجة أو وساطة، وكان شباب العائلة يلتفّون حوله، ويُصغون بنهم لأحاديثه.

وعزت بك، مع هيبته، لا يجد غضاضة في أن يدخن أي من أصهاره أمامه، وكان هو نفسه، يقدم السيجارة للصهر الجديد في أول لقاء، كي يريحه في جلسته معه، ويبعد عنه

الشعور بالحرج، ولكنه في الوقت الذي يريح فيه أصهاره، فإنه لشدة تهذيبه، لا يريح نفسه من الكلفة. إنه لا يدعو الصهر بإسمه مجرداً قط، إلا مسبوقاً بلقب سيّد، فيقول، سيد عاصم، سيد أحمد، سيد عمر، وهكذا.

توقفت السيارة، وترجل منها عاصم ليجلب سندويشات الكفتة. وهي لحمة مدقوقة، مملّحة ومبهّرة ومزوجة بالبقدونس، يضعها البائع بين دفتي رغيف متوسط الحجم، ثم يرفعه على النار، حتى يحمرّ ويجف، وتكون اللحمة قد نضجت بداخله، ويقدمه مع المخلل باللفت.

ظلّ عزت جواد مع زوجته وابنته ينتظرون في السيارة. يسرحون بأفكارهم تارة.. ويتبادلون الأحاديث تارة أخرى.. ترى كيف حال البيت في بيروت.. هل كل شيء على ما يرام... والبلد كيف حالها... قيل إن القوات الإسرائيليّة قد خرجت من بيروت، وتمركزت في محيطها.. ترى هل يصادفون اسرائيليين في طريق العودة، كما حصل عند مغادرتهم عقب دخول الإسرائيليين بثلاثة أيّام... كانوا يرونهم متمترسين في البنايات أنصاف المهجورة، أو بالأحرى مختفين، وحولهم أكوام الرمل..

ولا يدل شيء على وجودهم سوى آلية أو مصفحة رسم عليها نجمة داود واقفة منفردة أمام المتراس.جاء عاصم بالطعام، فأكلوه مستمتعين، قالت الأم:لقد تركنا البيت من مدة طويلة، وهو خال من الطعام لذلك من المستحسن أن نشتري، في طريقنا، بعض الخضار والفاكهة، وأن نأخذ ربطة خبز.

صادق عزت بك على كلامها قائلاً:

– خاصة وإننا لا نعلم حقيقة الحالة هناك. ربما يكون البقّال المجاور مغلقاً دكانه.

قالت سحر: وهناك أمر آخر، أيضاً. فالبيت متروك من مدة طويلة، وهو بحاجة إلى التنظيف، وإعادة ترتيب.وأنا لا أحب أن أخرج مباشرة إلى السوق لأشتري ما يلزمنا. فإنّي أفضل أن أعيد البيت سيرته الأولى، وأعتاد قليلاً على الجوّ، حتى نستأنف سيرة حياتنا العادية.

وصلت السيارة إلى الأوزاعي وانعطفت يساراً، متوجهة نحو مستديرة الكولا، ومن هناك استلمت أول كورنيش المزرعة، كان إنطباع سحر الأولي أن الوضع لا بأس به. لم تكن تتوقع

أن ترى البلد بهذه الحالة. فطريق السيارات ممهد ونظيف، وقد أزيحت أكوام الرمال والحجارة إلى جانبي الطريق، والبنايات أنصاف المهدّمة ململة الأنقاض، ومكوّمة بشكل منسق أمام كل بناية. الأنقاض لم ترفع نهائياً، إلا أن إرادة الترتيب واضحة.. شعرت سحر أن بيروت تبدو مثل بيت حاولت سيدته أن تلملم كركبات أطفالها، فكوّمتها فوق السرير، كي تتاح لها الحركة، وتحمي عينيها من المناظر المؤذية، المبعثرة هنا وهناك، دون أن تعيد كل شيء إلى مكانه الأصلي.

***

ودع عاصم عمّه وخالته، بعد أن قضى يومي عمل في بيروت، وقفل عائداً إلى دمشق.

أعادت سحر ترتيب البيت، وحاولت الإتصال بمركز عملها، لتسأل عن الأخبار وتعلمهم بعودتها، وأنها مستعدة لإستئناف العمل.

كان من عادة المدير أن يحمل لها الصحف والمجلات العربية التي تقرأها ومن ثم تختار الأخبار والمقالات ذا الطابع الثقافي

والإجتماعي والفكري، وتلخصها، ثم تترجم الملخصات إلى الإنكليزية. فمركز الدراسات الذي تعمل فيه يهتم بتاريخ العالم العربي المعاصر. وكانت الصداقة والألفة هي الرابطة الحقيقية بين جميع العاملين فيه من مدير إلى مساعد المدير إلى الباحثين المساعدين والباحثات التي سحر هي واحدة منهن.

بدأت سحر العمل في المركز قبيل إندلاع الحرب الأهلية في لبنان بأشهر قليلة. وقد فرضت ظروف الحرب أسلوباً معيناً في العمل والدوام، فهو منظم حيناً، ومتقطّع أحياناً.. وتارة يكون العمل في المكتب، وأطواراً في البيت، حسب الظروف. هكذا العدل يقتضي. فالقضايا الإستثنائية تتطلب عدالة استثنائية. لذلك كان المدير، لتواضعه، لا يجد غضاضة في أن يحمل لسحر الصحف والمجلات إلى منزلها، متخيّراً فترات الهدوء القصير بين قصف وآخر فيعبر من منطقة إلى أخرى. ونشأت بينه وبين العائلة صداقة، والفة، وصحبة. وتعرّف بأبويها وبأكثر إخوتها وأخواتها ممن يصادف وجودهم في بيروت، عند زياراته. وكثيراً ما كانت الزيارات تتحول إلى زيارات ذات طابع عائلي حميم، يتبادل فيها المجتمعون أطراف الأحاديث، فيحللون الأخبار،

ويسخرون من الأوضاع تارة، وتارة يسبغون هالات التقدير والإعجاب على حيوية الشعب اللبناني... إذ لو حصل ربع ما حصل في لبنان، في أي بلد آخر من بلدان المنطقة، لانتهى أمر ذلك البلد في لحظات...

بعد محاولات عدة استطاعت سحر الإتصال بمركز عملها.. اخبرت المدير رغبتها باستئناف العمل. فالاجازة إنتهت، والأحوال هدأت تقريباً بعد الإجتياح. فوعدها أنه في أقرب فرصة سيجلب لها عدة الشغل، وفي الوقت نفسه، يسّلم على والديها ويهنئهما بسلامة العودة، وبالنجاة من ويلات الإجتياح.

- ٣ -

جلست جمانة في البهو الصغير، في منزلها، بعد أن رحل والداها وشقيقتها. وكانت خالتها، وهي حماتها في الوقت نفسه، تزورها، لمدة يومين. وقد جاءت خصيصاً لتودع شقيقتها إسعاف، أم جمانة قبل سفرها إلى بيروت، وفي الوقت نفسه تؤنس وحشة جمانة بعد رحيل أهلها. قالت الخالة مخاطبة جمانة في محاولة منها لإعادتها إلى الواقع، بعد ما رأت من شرودها:

– مثل ما ودعت تلاقي إن شاء الله.

– تلاقي الخير.

إلا أن الخالة تابعت بحدّة من كتم غيظه وقتاً طويلاً:

–أريد أن أفهم، ماذا يحبّبهم ببيروت... أهلها تركوها، وأهلك ما زالوا متمسكين بها. الله يخلّصهم منها يا رب،

ويكتب لهم العودة، أو على الأقل، إذا كانوا لا يريدون السكن في دمشق، لظروف الوالد، فليذهبوا إلى أي بلد آخر، عندهم في جدة ثلاثة أبناء، وأيضاً عندهم بنت في الدمّام، ووالدك يده تطول أعلى المراكز، فما الذي يؤخرهم؟

– يا خالتي.. ماذا أقول .. كلنا، أنا وإخوتي، نتمنّى ذلك، ولكن ما العمل... القضية قضيتهم بالدرجة الأولى، ولو كان الوضع بالنسبة لهم سيئاً ولا يحتمل، كما نتصوره نحن، لما عدموا الوسيلة لتحقيق انتقالهم من بيروت..

– ولكن نحن.. والله دائماً قلوبنا معهم، أنا وخالاتك ليس لنا سيرة غيرهم. وفوق ذلك كل من سمع ببقاءهم هناك يتعجب.. ألم تشاهدي الأخبار في التلفزيون.. ألم تشاهدي المذابح التي حصلت، ليس في كل مرة تسلم الجرّة.. كلّموهم أنتم.. أنت وإخوتك.. أصرّوا عليهم.. ربما يسمعون منكم.

– يا خالتي .. فعلنا.. والله فعلنا. ولكن يبدو أن الله معهم، والذي حماهم في الأول يحميهم في الآخر. قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا..

وتابعت جمانة تقول: على كل حال المنطقة التي يقطنونها، منطقة آمنة، ليست كباقي المناطق. فهي بعيدة عن خطوط التماس. كما أن جميع حاجياتهم الأساسية مؤمّنة، الماء، والكهرباء، والطعام. حسب ما أخبرونا حتى في أثناء الإجتياح، كانت حاجياتهم الأساسية متوفرة. وفوق ذلك.. لا تنسي السنّ يا خالتي. إن والدي أصبح في سن لا تسمح له أن يبدأ من جديد.. حياة جديدة.. ومدينة جديدة.. ومناخاً وهواء جديدين. هذه أمور يقدر عليها الشباب.

سكتت جمانة قليلاً، ثم عادت إلى القول: وأيضاً عندهم أختي سحر، تقوم بخدمتهم في البيت وخارجه.. يتعكزون عليها وتتعكز عليهم. يعني باختصار لابد أنهم وزنوا الأمور جيداً، وأجروا حساباتهم بدقة، ولو كان الإنتقال سيرفع عنهم مشقّة، أو يوفر لهم وضعاً أحسن لفعلوا. ولكن يبدو أن أمورهم مستورة، وهم قانعون بها.

أطرقت الخالة رأسها وقالت في شبه تسليم للأمر الواقع: خير إن شاء الله.. وتابعت: هل أخبرك عاصم متى سيعود، لأنني أريد أن أذهب.. لقد أصرّ خلدون أن أعود بسرعة.

– لن يتغيّب أكثر من يومين، ربما يأتي غداً مساء، على كل حال لن أدعك تذهبين، ليس خلدون فقط إبنك، عاصم أيضاً إبنك. يجب أن تقضي عندنا تماماً مثل المدة التي تفضينها عند خلدون. فالأولاد يشتاقون إليك، ودائماً يسألون عنك... لن أدعك تذهبين، سواء عاد عاصم اليوم أو غداً أو بعد غد.

* * *

كانت الخالة وداد سيدة في أواخر العقد السادس من عمرها، سيدة قادرة مجرّبة.. تحب الحياة ومباهجها، وتعتبرها في الوقت نفسه حرباً سجالا، يوماً لك ويوماً عليك.. حين تسنح لها الفرصة كي تسيطر وتتحكم، فهي حاكم مستبد، وعندما لا تسنح لها الفرصة ولا تكون الظروف مؤاتية، فهي تحني رأسها للعاصفة وتهدأ. وهكذا ربّت أولادها السبعة منذ توفي عنها زوجها وهي في الثلاثينيات من عمرها، وترك لها حصّة في طاحونة للحبوب والقمح، وحصّة في بيت العائلة الكبير في حي الميدان. بيت مثل كثير من بيوت دمشق العربية الكبيرة التقليدية. له فناء واسع سماوي، تتوسطه بحرة رخامية بيضاوية الشكل، وفي زوايا الفناء وعلى أطرافه قامت أحواض الشمشير والياسمين

والخبيزة، مع عريشة للخميسة غطت حيطان الفناء.. وحول الفناء توزعت غرف البيت وكانت تدعى مربعات.. وللبيت طبقة ثانية تطل على الفناء، وفيها غرف مخصصة للنوم.. وكان لكل ابن غرفتان، غرفة للنوم في الطابق العلوي وغرفة للجهاز، جهاز الكنّة، في الطابق الأرضي.. وللحماة أيضاً غرفتان. كما أن عند مدخل البيت الرئيسي كان غرفة كبيرة تدعى البرّاني وهي لاستقبال ضيوف العائلة، خاصة الرجال..

كانت الخالة وداد تحتل الأوسع والأحسن من هذه الغرف، فهي زوجة الابن الأكبر وسيد البيت..فهي الآمرة الناهية.. زوجها يحبها ويحترمها ويلبّي طلباتها ويترك لها مطلق الحرية في إقامة الصداقات النسائية.. وحضور الإستقبالات، وإقامة مثلها في دارها ..

تعتبر الخالة وداد نفسها محظوظة، لأنها عندما توفي عنها زوجها كان أبوها ما زال على قيد الحياة، فكان لها سنداً ومعيناً. فلم تتأثر حياتها العامة كثيراً لفقد الزوج، وصداقاتها وعلاقتها الإجتماعية ظلّت كما هي.

وعندما توفي أبوها كان أولادها قد كبروا، وكانت أحوالهم

المادية مستورة. دخلوا الحياة العملية باكراً.. أربعة ذكور وثلاث إناث. البكر كانت بنتاً، ناديا تزوجت في أثناء أربعين والدها، واستقلت بحياتها وبيتها. فقد طلبتها خالتها إسعاف خانم زوجة لسلفها الأصغر سليم.. ويليها صبيّان يصغرانها مباشرة، الأكبر أكرم في السابعة عشرة، والأصغر خلدون في الخامسة عشرة، أما الأربعة الباقون فكانت هناء أكبرهم وعمرها إثنا عشر عاماً. وأصغر الجميع هيام وعمرها سنة واحدة، وبينهما الصبيان عاصم الكبير ومن ثم عادل.

كان عاصم عندما توفي أبوه في حوالي الثامنة من عمره، وكان الوحيد بين إخوته الذي أفلح في الدراسة، فوصل إلى صف البكالوريا، ولكنه لم يستطع الحصول عليها، رغم أنه دخل الإمتحان عدة مرات..

منذ بداية وعيه على ما حوله، عرف أن أمّه وجده لأمه هما المسؤولان عنه، أخوه الأكبر عمل في شركة للنسيج يملكها جده ثم سافر إلى الكويت ولحقه بعد ذلك الأخ الثاني. صار عاصم هو رجل البيت، تقريباً، لأن أمّه لم تترك له الحبل على الغارب، فهي الحاكم الفعلي.. ونشأت بينه وبين أخيه الأصغر

عادل صداقة حميمة، ولكنه ما لبث أن سافر إلى الكويت أيضاً للعمل.

كان عاصم رفيق أمّه وأخته الصغرى هيام، وكانوا يشكلون عائلة صغيرة.. يفكرون معاً بهموم الحياة اليومية، وينتظرون معاً اخبار الراحلين،ويحلمون سوياً بلمّ الشمل والاجتماع من جديد في رحاب الوطن، ويخططون لاستقبال الغائبين موسمياً في الصيف.

عاصم هو الوحيد من أبناء جيله في العائلة، الذي لم يغادر دمشق للعمل في الخارج، إلاّ في رحلات قصيرة لزيارة إخوته الذين لم يستقروا طويلاً في الكويت، فمنهم من ذهب إلى مصر، ومنهم من ذهب إلى البحرين، وأخته هناء تزوجت ورحلت إلى عمّان.

وعندما تسافر أمه لزيارة أولادها متنقلة بين بلد وآخر، يبقى هو في دمشق مع أخته الصغرى هيام حارسين أمينين للبيت وللأحلام، ومنتظرين لا يملاّن الانتظار.. ينتظران الأم حتى تعود.. وينتظران الرسائل حتى تصل.. ينتظران شروق الشمس وغروبها.. ينتظران الحلم الذي لا يتحقق .. إلا قليلاً.

وكانت لهما متعهما الصغيرة، وميولهما الفنية.. يستمعان معاً لأغاني عبد الحليم وأغاني نجاة.. يعقدان صداقات مع الجيران..

ومع أن عاصم لم يحصل على البكالوريا، إلا أنّه وطّد صداقات كثيرة مع طلاب جامعيين، حتى أصبح محله الصغير الذي فتحه في شارع بغداد لبيع أدوات الديكور ووسائل الزينة المنزلية، ملتقى لأصدقائه.. تدور فيه أحاديث منّوعة، تتناول كثيراً من القضايا المطروحة بين المثقفين في ذلك العهد، الدين والديمقراطية، وحقوق الإنسان، والقضايا الإجتماعية، الثورات وفلسفتها، الرجعية والتقدمية، اليمين واليسار، الوحدوية والإنفصالية.. كل ما يخطر في أذهان الشباب المتفتح حديثا على الحياة.

وكان عاصم يستمتع جداً بهذه الأحاديث ويهيّء نفسه لها بالمطالعات المنوعة، دون أن يصرفه ذلك عن عمله الذي أحبّه كثيراً.. وكانت أوضاعه تعطيه شعوراً بالأمان والإستقرار .. عنده عمل، وله بيت، إستأجره باسمه، واستقر فيه مع أمّه وأخته، بعد بيع بيت العائلة الكبير في الميدان، وتفرق سكانه، وتحوّله إلى مدرسة ابتدائية حكومية للحي. وسارت حياته ناعمة

مستقرة، إلى أن عاد أخوه خلدون من الكويت، ليستقر نهائياً في الوطن، وكان قد تزوج ورزق ببنتين وولداً. وكان طبيعياً أن ينزل عند أمّه وأخيه، ريثما يدبّر لنفسه بيتاً مناسباً.

في ذلك الحين استدعي عاصم لأداء الخدمة العسكرية، بعد أن استنفد كل مدة التأجيل بحجة الدراسة. رحل عاصم لأداء الخدمة، وانطوت بذلك مرحلة من حياته.. ليدخل مرحلة أخرى.. دامت خدمة العلم أربع سنوات، بما فيها الخدمة الإحتياطية. كانت الحياة فيها غير الحياة، والناس غير الناس، والأحلام غير الأحلام.

- ٣ -

قال عبد الرحمن: لماذا الحيرة، إن أمّي تملك بيتاً صغيراً، هو بالحقيقة سطح مرآب في بناية محترمة جداً في شارع أبي رمّانة. من الممكن أن نجري عليه بعض التصليحات، فيصبح صالحاً للسكن. ما رأيك؟ تسكن فيه ما دمت عازباً.. وستعتاد عليه وستجده مريحاً...

نظر عاصم إلى صديقه عبد الرحمن .. كان من المداومين على جلسات محل الديكور في شارع بغداد، ورفيقه في سنوات الخدمة العسكرية، ويعرف عنه أكثر مما يعرف هو عن نفسه.

– ولكن ..

– ولكن ماذا .. أي بيت آخر مهما صغر حجمه أو كبر يلزمه بدل إخلاء.. وأنت الآن لست في حال تسمح لك بأي بيت أفضل .. وأمّي ستراعيك في السعر..

فكر عاصم.. عبد الرحمن.. يا صديقي العزيز.. والله إنك أخي الذي لم تلده أمّي.. أين أمّي الآن.. تسكن مع خلدون .. لقد أخذا بيتي في شارع بغداد وأصبح رسمياً باسم خلدون بعد أن اتفقا مع صاحب البيت لنقل الإيجار لإسمه.. ودفعت أمّي بدل الإخلاء.. وهكذا فهي تسكن بحصتها .. وليس له منّة عليها .. لم يكن بوسعي أن أرفض .. فهو صاحب عائلة.. وأنا أعزب، وفي الخدمة الإحتياطية... قبلتُ الأمر الواقع .. ورضيت مكرهاً.. لم يكن عندي مسؤوليات.. وهو أخي وأفضل من الغريب، وأنا أحبه على كل حال..

– ها .. أين كنت .. أجبني هل أنت موافق؟

ردّ عاصم: لابأس، كما تريد يا عبد الرحمن.

وأصبح منزل عاصم أو قن الدجاج كما أخوه يطلق عليه روّاده.. أصبح من جديد ملتقى الأصدقاء والأصحاب... عثمان، وإسماعيل وأيمن وأديب وعبد الرحمن وغيرهم. كان عاصم يجيد إقامة العلاقات من كل الأنواع، لسانه طلق في الحديث، وبإمكانه أن، يخوض معمعة أي موضوع سياسي ..

إجتماعي .. عاطفي.. وكانت له أيضاً صديقات طالبات يأتين لزيارته .. لتمضية الوقت والثرثرة وأشياء أخرى.. وكانت له علاقة حب حقيقية مع احداهن.. وسعى جاهداً للزواج منها، ورُفض طلبه لأنه لا يحمل البكالوريا، وليس عنده بيت لائق.. مع أن محلّه الذي استأجره قبيل خروجه من العسكرية بأشهر قلائل، وبمشاركة أمّه وأخيه خلدون وصديقه أديب، وهو موظف حكومي يحمل إجازة الحقوق، إستطاع توفير مبلغ من المال فوظّفه مع عاصم.. كان هذا المحل يشكل أملاً واعداً بالثروة والغنى .. ولكنه لم يقنع سميرة ولا أهلها بفكرة الزواج ... وشاعت قصة حبّه معها وشدة تعلقّه بها .. وأصبح همّه وأمل حياته أن يتزوج فتاة جامعية... تزوجت سميرة غيره، وظلّت تسكن في أعماقه.. لقد أحبّها حبّا حقيقياً.. لم ينسها حتى بعد أن تزوج جمانة إبنة خالته.

* * *

يقع محل عاصم الجديد في شارع فرعي خلف منطقة الشعلان في دمشق، في مواجهة حديقة السبكي المشهورة، والتي كانت تعرف بحديقة العشاق، فكثيراً ما كان تلامذة المدارس وتلميذاتها

يقصدونها هرباً من الدروس أو بعد إنتهائها. وطالما كانت دروبها وشجيراتها ومقاعدها شاهدة على همسات العاشقين البكر، وتنهدات العذارى الحالمات. وفي أيّام الجمع والآحاد تتحول هذه الحديقة إلى حديقة يقصدها كل الناس وخاصة العائلات فيلعب الأولاد في أرجائها.

كانت الحديقة، وما يحصل فيها يؤنس عاصماً، ويحمله بعيداً عن هموم العمل وتحصيل أسباب العيش، ويصرفه قليلاً عن محله المخصص لبيع التحف الصغيرة، واللوحات، والقناديل الكهربائية، وصحون السجائر.. كل ما يلزم للهدايا.. ولكن مع الوقت صار له مهمة سرّية أخرى، أصبح مكتبا لإجراء صفقات بيع الكريستال والثريّات الكهربائية، بالجملة. فكان أصدقاء عاصم يدفعون له التمويل اللازم لشراء البضائع، وكان هو يختار أنواعها وأشكالها ويقوم بتسويقها، ويقسم الأرباح بين الممولين بنسبة مدفوعاتهم.. وكان هو الشريك المضارب في كل بيعة وصفقة.

وهذا النوع من التجارة كان يدرّ عليه أرباحاً لا بأس بها، ولكنها كانت أرباحاً سريعة الذوبان، تهرب وتتبخر بسرعة.

فهو كريم جداً.. ما قصده صديق إلاّ ولبّاه..وما قصده أحد من أهله إلا وفكّ ضائقته.

وقد أغراه صديقه عثمان وهو طالب جامعي يدرس فلسفة وعلم نفس، وكان متفلسفاً ومدّعياً .. أغراه بتوسيع عمليات البيع والشراء، ونصحه بالسفر إلى بيروت، وجلب البضاعة من هناك .. حيث التنوع والرخص والجودة ... وهناك كثير من سائقي السيارات العمومية التي تعمل على خط بيروت – دمشق، من يستطيع تسهيل عمليات نقل البضائع بكميّات صغيرة على دفعات، تحمل بين سفرة وأخرى.

على طريق بيروت –دمشق تعرف عاصم بعوالم السائقين وخفاياهم، وخبايا نفوسهم، ونشأت بينه وبين كثير منهم صداقات حقيقية.. كانوا يعتبرونه رجل أعمال محرزاً، لا يُعلى عليه، هكذا يردّدون عندما يأتي ذكره... وكان يستمتع بقصصهم ومغامراتهم مع رجال الجمارك.. ومع النساء.. ويستمع إلى مبارياتهم في توجيه مرآة السيارة بحيث يستطيعون إستراق النظر إلى الراكبات الحسناوات في المقاعد الخلفية، دون أن يلتفت نظر أحد إليهم.. وصراعاتهم بعضهم مع بعض

والتنافس فيما بينهم لإصطياد الزبائن.

وكان لا يجد غضاضة، بل على العكس من ذلك، كان يستمتع في مشاركتهم مائدة إفطار صباحي أو غداء أو سفرة مازة في أحد المطاعم المنتشرة في شتورة والقرى الحدودية.

في بيروت، كان عاصم ينزل ضيفاً على بيت خالته إسعاف خانم وزوجها عزت بك جواد. حيث هناك أولاد خالته وأصدقاء الطفولة.. كلما يدخل عاصم إلى بيت خالته كان يشعر أنه في عالم آخر.. عالم طالما حلم بمثله.. وطالما تمنّى أن يكون إنتماؤه إليه حقيقياً..انتماء من الداخل، وليس انتماءا ظاهرياً.. كان يسوق الحجج لنفسه .. بأنّه وإيّاهم أهل وليس هناك أي فرق بينهم .. ولكنّ صوتاً بداخله يقول له: لا .. أين عالم صغار التجار والبائعين والسائقين العموميين، من عالم رجال الحكم والفكر والسياسة.. هذا هو المجتمع الذي نشأ فيه أولاد خالتك.. تلقّوا العلم في أحسن المدارس، وهم الآن في الجامعات... ولم يضطروا لأداء الخدمة العسكرية، لأنهم دفعوا المال بدل الخدمة، وعاشوا حياتهم لا يحملون همّ اللقمة ولا إنتظار عودة الأم المسافرة.. ولا الحسرة على الأب المفقود.. لديهم شاليه على

شاطىء البحر، وبيت في الجبل للإصطياف والترويح عن النفس، وسيارة أميركية فارهة مع سائق خصوصي، يحمل كلاً منهم إلى مدرسته أو جامعته.. ورحلات سياحية في عطلات رأس السنة والميلاد ...

وكان يعزّيه أحياناً أن يلمس تذمّر أولاد خالته وشعورهم بأنهم لا شيء... ليس لأي منهم قيمة حقيقية تنبع من ذاته من ميزاته الشخصية، لا من كونه إبن أو إبنة عزت بك وإسعاف خانم.. حياتهم السهلة والميسورة حرمتهم من متعة التجربة والمعاناة.

ويستغل عاصم هذا الوضع ويشرع بالتباهي.. ويسرف في وصف قصصه عن أيّام العسكرية، وقصصه بعد خروجه منها، ومغامراته مع السائقين.. والنساء.

وكان أكثر المستمعين إليه ثلاثة من أولاد خالته، أكبرهم سعيد وهو في مثل سن عاصم، والثاني عاطف وأصغر الثلاثة حسام. سعيد وعاطف كانت تبهرهم قصص عاصم ومغامراته، أمّا حسام فهو مشغول بأمور أخرى أكثر جدّية، منها القراءة

والإهتمام بدروسه، وحلمه بأن يكون يوما صحافياً وكاتباً مشهوراً .. أمّا سعيد وعاطف، فكانت أحلامهما ضبابية.. ليست واضحة.. يحلمان بأن يكون لهما شأن ما.. ما هو؟ كيف الوصول إليه؟ لا يعلمان... إلاّ أن عاطفاً يهتم بدراسته وناجح فيها. أمّا سعيد الكبير فكان لا يحب المدرسة ويتمنى لو يتركها ويدخل الحياة العلمية، ويشتغل بالتجارة... ولكن والده يرفض مناقشة هذا الأمر إلا بعد حصوله على البكالوريا على أقل تقدير، لأن عزت بك في الأساس يفضل ألاّ يمارس أولاده أي عمل إلا بعد التخرج من الجامعة.

* * *

سعيد وعاطف مأخوذان بقصص عاصم، منبهران بها، مشدوهان بما يسمعان، وفي ليلة كان عاصم يزورهم في إحدى سفراته، فأغراهما بالذهاب للسهر في إحدى علب الليل المنتشرة في حي الزيتونة.. الزيتونة، الدرّة المتوهجة في لبنان، بل في حوض المتوسط.. فرق أجنبية راقصة.. شمبانيا.. فرح.. أضواء لا تنطفيء تنعكس على صفحة البحر.. أشعة ملونة.. في لياليها يجتمع السياسيون والزعماء والجواسيس ويحيكون الإنقلابات،

ويؤلفون الحكومات..

فكر سعيد وعاطف، كيف نستطيع الذهاب والسهر، وعينا الوالدة والوالد لا تغفلان حتى نكون جميعاً قد غرقنا في سبات عميق ... كان عاطف هو العقل المدبّر مع أنّه الأصغر، وسعيد يستمع إليه.. وعنده الجرأة على التنفيذ.

اتفق الاثنان على أن يصنعا مفتاحا للباب الخارجي، ويحتفظان به، ريثما يرجع عاصم من سفرة أخرى. عندئذ يرافقانه إلى إحدى السهرات ..

تعوّد عزت بك أن يقفل الباب الخارجي للبيت بالمفتاح، بدافع الأمن الشخصي، إذ لم يكن يخطر في باله قط أن أحداً من أبنائه يجرؤ على أن يغادر البيت ليلاً.. وكان من دواعي فخره واعتزازه أن له هذه الرهبة في نفوس أبنائه، التي تلجمهم عن الإتيان بأي فعل لا يرضى عنه.. وكان يزيد في زهوه هذا أن يرى أصدقاءه يبدون شكواهم وعدم قدرتهم على ضبط سلوك أبنائهم.. ويتعجبون كيف أنه يستطيع هو أن يسوس أولاده بهذا الإنضباط، مع أنهم كبروا، ومنهم من هو في الجامعة.. وفي

زمن التلفزيون والإذاعة والسينما التي تفسد حتى أتقى الأتقياء وتعلّم حتى أغبي الأغبياء..

جاء عاصم ليبيت في بيت خالته كالعادة .. وبعد أن هدأ الجميع، وأوى كل من في البيت إلى فراشه تسلل الفرسان الثلاثة: عاصم وسعيد وعاطف خارج البيت.. وشقّوا طريقهم من الحازمية إلى الزيتونة، مجتازين شوارع بيروت المتلألئة بالأضواء الكهربائية، كأنها شعلة فرح... دخلوا أحد كهوف الليل.. وقضوا السهرة وعادوا بسلام.. وحاولوا أن يعيدوا الكرّة في اليوم التالي، ولكن أخاهم الأصغر أحمد شعر بالمؤامرة، وعمل على احباطها بأسلوبه المميز.. فكان يصرخ، في سكون الليل، بصوت عالٍ: إلى أين.. وما يكادون يطمئنون إلى أنه غفل حتى يعود إلى الصراخ: إلى أين.. عودوا إلى الفراش وإلا سأوقظ الوالد.

* * *

كان عاصم يضحك في سرّه من تذمر ابناء خالته أو معاناتهم كما يطلقون عليها ويسخر منها، ويعتبرها مثل معاناة أبناء العائلات

الأميركيّة التي يشاهدونها في الأفلام السينمائية والتلفزيونية.. معاناة سخيفة لمترفين لم تكسر أنوفهم الحاجة، ولا الحرمان.. إنها معاناة كمالية، معاناة يمكن وضعها في خانة أضعف الإيمان، لولاه لفقد وجودهم طعمه ولونه ورائحته..

طالما تمنّى عاصم أن تقتصر معاناته في الحياة على هذا النوع من المعاناة، كأبناء خالته وبناتها.. كان يعجبه وضعهم بشكل عام، وبكل تفاصيله.. يحب ترحيبهم به وبكل الأهل والأقرباء.. فهم منذ خروجهم من دمشق لأسباب سياسية وإقامتهم في بيروت.. كان بيتهم مشرّع الأبواب لكل أهل دمشق.

حياتهم في بيروت لم تكن غربة أبداً.. كان الأهل والأصدقاء يزورونهم في كل المناسبات، وفي الاعياد، وحتى بدون مناسبات.. وكانوا فرحين بذلك وسعداء.. حتى أن صلتهم بكثير من الأهل والأقارب أخذت طابعاً حميماً،ما كان ليحدث لولا إقامتهم في بيروت، واضطرار الضيوف إلى الاقامة عندهم اياماً واحياناً اسابيع.. فتتوطد بالاقامة الطويلة، نوعاً ما، أواصر الألفة والصداقة بين أفراد العائلة بشبابها وصباياها، وبين ضيوفهم.

أخذت الأم تعد معاملات السفر بمساعدة أبيها ووكيل زوجها. إلا أن إخوة زوجها أبدوا تجاوباً متحفظاً في مسألة سفرها، لا سيما أن الأوضاع السياسية ليست مستقرة بعد، ولا يعقل أن يكون ربّا العائلة خارج البلاد ويتركوا الأولاد العشرة في عهدتهم، بينما كل منهم لديه عائلته ولا يمكنه تحمل الوضع إلى ما شاء الله. وفيما كانت قضية السفر تتراوح بين أخذ ورد. وإذ بالباب يطرق ذات صباح حوالي الساعة السابعة، كان الأستاذ محمد، صديق الوالد، فتستقبله إسعاف خانم وسحر، ويسألها إن كانت هويتها صالحة، فتجيب بالنفي فيطلب صورتين ليستحصل على هوية جديدة، لأن زوجها الأستاذ عزت، قد إتصل به أمس من بيروت، وطلب منه أن يبلغ السيد نبيل والسيدة إسعاف زوجته بموافاته إلى هناك في فندق رويّال.

لقد أشاع هذا الخبر فرحاً غامراً وأملاً كبيراً، لم يكن يعني العائلة غير إجتماع شملها بعائلها.. لقد كانت أحكام المصادرة والعزل وإجتياح المنزل من قبل الشرطة.. كلها في كفه ميزان، وبعد العائلة عن عائلها في الكفة الأخرى. لذلك ما إن حمل الأستاذ محمد هذا الخبر حتى استبشرت الأم والأولاد خيرا.

وفي اليوم التالي تماماً وكان يقع في ٢٥ نيسان، غادرت السيدة إسعاف برفقة وكيل أعمال زوجها، البيتِ، وكانت كل من إبنتيها سحر ومهى فقط في وداعها، فقد كان الباقون في المدرسة. وكان الوداع غارقاً بسيل من الدموع. لقد كان السفر خطوة إعتباطية لم يسبقها أي تخطيط أو دراسة. المهم أن تلاقي زوجها الآن. فقد تعودت أن تكل إليه كل أمورها. فهي تثق به ثقة عمياء. وكان شعورها يزخر بالإطمئنان والأمان ما دام زوجها موجوداً وقادراً على التحرك بعيداً عن السلطة الحاكمة. لذلك كان همُّها أن تكون إلى جانبه في أسرع وقت. أما الأولاد فلابدّ أن يتدبر هو أمرهم.

سحر ومهى الشقيقتان الكبريان.. كان الشعور بالمسؤولية ينوء به كاهل كل منهما الصغير.. لقد كانتا تعيان بعمق معنى أن يصادر لأبيهما كل ما يملك.. معنى أن يعزل سياسياً.. معنى مواجهة عيون الناس المشفقة تارة، والمغلّفة بالعطف حيناً، والشامتة في أحيان أخرى.. معنى أن يكون عيد الأضحى على الأبواب، وأبواهما بعيدان، ولا يعلم إلا الله متى يلتئم الشمل ويتم اللقاء.

لذلك أول ما فكرت به سحر وتباحثت فيه مع مهى هو أن لا يفتح باب البيت أمام أي زائر في العيد. فهما لا تستطيعان أن تتصورا أيّاً كان يوزع عليهما وعلى إخوتهما العيدية في غياب الوالد، سواء كان ذلك من الجد أو العم أوالخال. مع أنهم فيما مضى من الأعياد كانوا لا يشعرون بأي حرج عندما يأخذون العيدية بل على العكس كانوا يفرحون بها وينتظرونها بصبر نافذ.ولكن في تلك الأيام كان أترابهم من أولاد الأعمام والأخوال ينتظرون العيدية من العم عزت. ويفرحون بها.. أما الآن فالوضع مختلف. لذلك سيغلق باب البيت في العيد ولن يفتح أمام أي زائر.

لقد كان الوضع بالنسبة لسحر فوق أي إحتمال أو تصور، خاصة وهي الخيالية ذات المزاج الشاعري. لقد كان لديهم من المال ما يكفيهم لوقت قصير. وعندما كانت تفكر أن ما لديهم سوف ينضب قريباً، تحس أن رأسها يكاد ينفجر..

فتحاول أن تهرب من الوضع القائم إلى عالم الأحلام.. أحلام اليقظة التي تعرف أنها لن تتحقق ولكن تحاول أن تنسى. كان شعورها أن الفرح ذهب ولن يرجع.. الملابس الزاهية..

الحفلات.. اللقاءات الإجتماعية.. الإجتماع بصديقات الدراسة كل ذلك لن يرجع.

وإذا برنين الهاتف بعد يوم وليلة ينتشلها من هذاالخضمّ الزاخر من الهواجس. لقد كانت والدتها من بيروت تقول في محاولة للتكتم إن أخاك يريد التحدث إليك، عند ذلك قالت سحر:

– آلو.. ولم تقل بابا خوفاً من الرقابة على الخطوط الهاتفية.. آلو... وعندما سمعت صوته غصت بالدموع ولم تستطع إتمام الحديث.

فتناولت مهى سماعة الهاتف، وغصت الأخرى بالدموع، فما كان من سعيد، وهو أكبر الذكور، وترتيبه الثالث في العائلة ولم يتجاوز السابعة عشرة من عمره، إلا أن تناول السماعة من مهى واستطاع إنقاذ الموقف ومتابعة الحديث، وكان بإعتقاده أنه في موقفه ذلك يسجّل موقفا رجولياً.

المهم.. فهم من المكالمة الهاتفية أن عليهم أن يهيئوا أنفسهم ويحضّروا ما يحتاجونه من ملابس، لأن السيد نبيل سيعود في

الغد ليصطحبهم إلى بيروت فيقضون العيد مع أبويهم، ثم يعودون قبيل الإمتحانات إلى دمشق.

وأسرعت سحر، وهي أكبر إخوتها، في العشرين من عمرها، وبمساعدة مهى التي تصغرها بعام وثلاثة أشهر، تحضّران ملابس بقية الإخوة والأخوات التي تلزمهم خلال هذه الإجازة غير المتوقعة. وفي يوم السفر كانت الجدة أم شفيق والعمة هدية والخالة وداد في وداعهم. وبينما كان الجميع منهمكين في الإعداد للسفر، كان المذياع يصدح بأغنية شعبية تقول: «جينا الدار نسأل عالحبايب.. لقينا الدار بتبكي عليّ غايب» ويظهر أنها فعلت فعلها بالجميع فإذا بالجدة والعمة والبنتين تلتقي عيونهن وقد إغرورقت بدمع صامت.

وصلت السيارتان اللتان ستقلّان الأولاد إلى بيروت، فأغلقت سحر الباب الخارجي للمنزل، وأقفلته بالمفتاح، بعد أن تأكدت من إغلاق جميع الأبواب والنوافذ الداخلية، ولم تترك المفتاح في عهده أحد.بل حملته معها إلى بيروت وانطلقت السيارتان بينما وقفت الجدة والخالة والعمة يلوّحن للأولاد ويبكين، كأنّه وداع لا لقاء بعده.

إنطلقت السيارتان المرسيدس الحمراء والمرسيدس السوداء. وقد أبى أحمد وهو أكبر الأربعة الصغار إلا أن يأخذ القط الأبيض الصغير معه. إذ لمن يتركه وعمره لم يتجاوز العام ولم يفارق المنزل قط. فما كان منه إلا أن وضعه في السّلة التي تعودّوا أن يحملوا فيها طعام الغذاء إلى المدرسة. وبعد مشادّة بينه وبين سحر أخته الكبرى التي كانت تحمل خوفاً غريزياً من جنس الهررة، سمحت له أن يأخذه شريطة ألا يركب معها في نفس السيارة.

وعادت عينا سحر لتقعا على ورقة الروزنامة المثبتة على تابلو السيارة، والتي كانت تحمل تاريخ ٢٨ نيسان ١٩٦٣، وكان المطر الربيعي في نيسان يرش واجهات المحلات وحجارة الطريق التي تمتد فيها سكّتا الترام في فرن الشباك، آخر طريق الشام في بيروت.

- ٥ -

يا حبيبتنا بيروت شو صاير بالدني، بيروت يا بيروت دخلك لا تنحني، إنت الحب الغني، وإنت البيت الهني وإنت الزمان الباقي بوراق السنة...

كانت كلمات هذه الأغنية للمغني الشاب الصاعد تصدح من مذياع السيارة وسحر تجلس خلف المقود، والمطر يرخ سخيّاً على زجاج السيارة، والمسّاحات تروح وتجيء أمام ناظريها، وهي مستمتعة بهذا الجو... أحبّ شيء إلى قلب سحر أن ترى الشوارع مغسولة بالمطر.. وأن ترقب الخطوات العجلى والخوف والحذر، وتحاول أن تتجنب الحفر المنتشرة في الطرقات كي توفر على نفسها سباب المارة وشتائم العابرين، عندما ترشمهم المياه الموحلة المتناثرة ومن ارتطام عجلات السيارة بحافات الحفر...

بلغ تعلّق سحر بسيارتها حدّ العشق، فهي رفيقة دربها،

وصديقها الأمين، وساعدها الأيمن، ووسيلتها لتحقيق حريتها.. علاقتها بسيارتها جعلتها تدرك أخيراً سرّ تعلّق العربي القديم براحلته ومطيته.. حتى أصبح وصفها تقليداً يلتصق بكل الشعر القديم.. إنها وسيلته الناجعة لتحقيق حريته.. أليست الحرية هي الشاهد الأول على إنسانية الإنسان.. أنت حرّ إذن أنت إنسان.

عندما تُحكمُ سحر إغلاق ابواب السيّارة وتطير بها، تحسّ أنها في مأمن من كل شرور العالم.. تحسّ أن العالم كله مملكة سعيدة وأنها هي الملكة.

من عادة سحر اليومية منذ ضربت الحرب معاولها في أرض لبنان أن تخرج قبل الظهر لتنجز أي عمل تقتضيه متطلبات الحياة اليومية.. شراء الخضار والفاكهة.. شراء الخبز.. شراء وقود للمولد الكهربائي الذي تستعمله العائلة عند انقطاع التيار الكهربائي.. زيارة مكتب البريد لإرسال برقية أو رسالة.. فتح صندوق البريد، لعل رسالة من أحد الأخوة والأخوات أو صديق بعيد تحمل خبراً سعيداً أو حزيناً.. لم يعد هناك كبير فرق، فالأمور تسير على كل حال.. زيارة المصرف لوضع أو سحب المال... المهم أن تكون في البيت قبيل موعد الغذاء.

منذ سنوات لم تحاول الخروج من البيت بعد الظهر أو في الليل.. لماذا السعي إلى المخاطر بقدمين واعيتين.. لعل من فوائد المحن أنها تجعل المرء يكتشف قدرته على الإحتمال، وقدرته على التكيّيف.. وقدرته على مسايرة ما يجدّ من مفاجآت... بعد تجاوز المحنة كل شيء مقبول.. إلا الموت، مع أنه يدركنا ولو كنّا في بروج مشيّدة، قبل الموت تبقى هناك مساحات للحلم... ويبقى هناك وقت لكل شيء.. وقت للعمل.. ووقت للحب.. ووقت لتحقيق الذات.

الموت والمرض العضال، والعاهة المستديمة.. هذه الأقانيم الثلاثة فقط تستأصل بذرة الحلم من العين والقلب.. وكل ما عداها يروح ويجيء.. الكرّ والفرّ هو ملح الحياة الذي يعطيها طعماً ما.. لونا ما.. رائحة ما.. أنت وحظك.

سحر تعتبر نفسها محظوظة، لقد دخلت هذا الإمتحان — المحنة وخرجت منه بلا موت.. بلا مرض.. بلا عاهة.. ليس هي فقط، وإنما كل من يخصّها من أقرب قريب إلى أبعد صديق.. كثيراً ما تكون النعمة مرتدية ثياب النقمة.. كل شيء لخير.. هكذا كانت سحر تردد دائماً... وتتذكر عصبية أختها

مهى عندما يشتد القصف وتهرب العائلة إلى الطوابق السفلية من البناية.. فترد على برودة سحر:

– أين الخير في ذلك.. عندما يخترق رصاص القنص النوافذ.. أو عندما تمتلىء السقوف والجدران بالفجوات.. أو عندما تتبعثر شظايا الزجاج المحطم فتصيب أطفالنا.. أين الخير في ذلك.. عندما لا نستطيع أن نغفو ولو لحظة واحدة في الليل من شدة الهلع أين الخير في ذلك..

لقد رحلوا جميعاً واحداً اثر واحد.. كلّ أخذ عائلته الصغيرة ورحل.. ليس دفعة واحدة.. بل بالتقسيط..

هكذا أخذت سحر تزدرد المصيبة لقمة لقمة.. لم تشعر كيف بلعتها هي وأبوها وأمها... بلعتها إلى أن اعتادت عليها..

تغيّر نمط حياتها... دخل على الخط أحلام أخرى.. دخل التخطيط للسفر الموسمي... والتنقل بين البلدان التي توزع فيها الأخوة والأخوات وعائلاتهم وبعض الأصدقاء...

سعيد وعاطف وحسام تزوجوا قبل الحرب، وكذلك مهى وهند، أما جمانة وهالة فقد تزوجتا في أثناء الحرب.. محسن

مات قبل الحرب بسنوات والربيع مزهر على كتفيه... وأحمد هاجر إلى أوروبا واستقر أخيراً في بلجيكا..

رحلوا جميعاً.. وسحر تردد دائماً لخيرة وتقول في نفسها: كثيراً ما تكون النعمة مرتدية ثياب النقمة. إن الله يفعل ما يفعل لحكمة.. وهو خير مطلق ولا يصدر عنه إلا الخير...

تقبّلت الأمر الواقع، وتكيّفت معه. ... وأصبحت هي الممثل الشخصي للوالد والوالدة.. تقوم بالواجبات عوضاً عنهما.. خاصة في المهمات خارج لبنان.. عندما تكون إحدى أخواتها تستعد لولادة طفل جديد، تسافر سحر للمساعدة والقيام بالواجب.. عندما يمرض صديق عزيز، تسافر سحر لعيادة المريض وحمل تمنيّات الوالدين بالشفاء العاجل... وعندما تحصل مشكلة زوجية بين أخ وزوجته أو أخت وزوجها.. تسافر سحر للتدخل وحل الإشكالات.. وكانت سحر سعيدة بهذه المهمّات المتحركة... لا ينغصها شيء إلاّ أنها ستضطر للإنقطاع عن عملها.. طول فترة السفر، وستضطر لمضاعفة جهودها عند العودة، لتنجز ما تراكم في أثناء غيابها.

كانت ترى في عملها نعمة من الله تعالى خصّها بها من بين جميع الكائنات.. فهو الحب الذي يمنحها القوّة والصبر ودرجة عالية من الإحتمال.. وهو الوعد الذي يتحقق دائماً مهما طال الإنتظار... وهو السلام الداخلي الذي يسربل أعماقها.. وهو العاطفة المستقرة التي لا تهزها عواصف ولا تدمرها أعاصير... لذلك فهي تتقبل أية مهمة تنتدب لها في سبيل العائلة بيسر وسهولة ودون أي تذمر أو اعتراض لا ظاهر ولا باطن.. إلا قليلاً... فتدرك أن هذه المهمّات مهما صعبت هي ملح الحياة.. وان هناك دائماً لحظات سعيدة تنتظرها مهما سافرت وابتعدت...

* * *

عادت سحر من جولتها الصباحية.. واستقبلتها أمّها:

– كيف وجدت البلد بعد غيابنا هذا؟

– لا بأس بها.. والله كأنها لم تكن مسرحاً لهذه الحرب المدمرة التي كنّا شهوداً عليها... طبعاً في محيط البيت.. ذهبت إلى شارع الحمراء، وذهبت إلى منطقة الجامعة الأميركية.. وتابعت إلى المنارة، وتوقفت عند مكتبة رأس بيروت.. هذه

المناطق، رجعت كما كانت قبل الإجتياح الإسرائيلي.

قالت الأم: ألم يبق هناك أي أثر من آثار الإجتياح.. زجاج محطم.. نفايات متراكمة..

– لا شيء أبداً.. على الأقل في هذه المناطق التي مررت بها.. كل شيء عادي.. مررت أيضاً على مكتب البريد لأرى إن كان هناك رسائل.. ولكن لم أجد شيئاً.

توقفت سحر لحظة عن الكلام، ثم سألت: هل اتصل بنا أحد؟

– من سيتصل؟ لا أحد.

– أحد من إخوتي.. أو من مركز الدراسات، حيث أعمل.

– لا.. لم يتصل أحد.. هل تتوقعين أن يتصل أحد؟

– – أتوقع أن يتصل المدير، فالمفروض أن يكون قد أتى من يومين على الأقل... لقد مضى قرابة عشرة أيام على اتصالي به عقب عودتنا من الشام...

– لا تقلقي.. لا بد أن يأتي.. كثيراً ما كنت تنتظرين أسبوعين أو أكثر... طوّلي بالك.. فإن له ظروفه.. أليس عنده

شغل غيرك.

قالت سحر: لا أعرف لماذا قلبي مقبوض.. تعرفين أن حدسي لا يخطىء.. ودائماً أشعر مسبقاً إن كان سيحدث شيء غير عادي سواء خيراً كان أو شراً.

– صلّي على النبي.. واقرئي ألم نشرح لك صدرك.

– حسناً.

بعد أن فرغ الثلاثة من تناول طعام الغداء.. أعدّت سحر القهوة المرّة العربية لوالديها.. وأعدت لنفسها فنجاناً من الشاي.. ومع دخولها غرفة الجلوس حيث كانا يجلسان بعد الغداء... رن جرس الهاتف.. تناول والدها السماعة:

– نعم.. أهلاً... والتفت إلى زوجته: هذا عاطف يتكلم من جدَّة. أسرعت الأم إلى غرفة النوم لتستمع إلى المخابرة وتشترك بها، وكذلك انطلقت سحر لترفع سماعة الجهاز الموجود في مدخل المنزل. هكذا اعتادت العائلة أن يكون كل فرد منها على خط، فيشترك الجميع بالمكالمة.

– ماذا!!

– عاصم زوج جمانة موقوف منذ اسبوع تقريباً. ولم تسمح جمانة أن نخبركم فهي لا تريد أن تزعجكم. ولكن يبدو أن الأمر معقد، وخشينا أن تطول القضية أكثر.. ورأينا إخباركم دون علمها..

– ألم تعرف لماذا؟

– بضاعة لم تمر على الجمارك، وليس لها فواتير..

ردّد عزّت بك بقنوط:

– لا حول ولا قوة إلاّ بالله.

– يبدو أن هناك حملة كبيرة ضد التجار، بشكل عام. أكثر من مئتي تاجر أوقفوا رهن التحقيق.

أقفلت سحر السماعة وحملت فنجان الشاي ودخلت غرفتها وأغلقت الباب وراءها دون أن تتم سماع بقية المكالمة الهاتفية. وأخذت تردّد في سرّها: حظ يفلق الصخر... يبدو أنني لن أرتاح...

وجلست تشرب الشاي في هدوء، وكأن الأمر لا يعنيها.. كان شعورها بين بين.. هي هكذا دائماً.. عندما ينقبض

صدرها..تظل مضطربة في داخلها حتى يحدث ما يحدث... فتنفرج أساريرها، وتحسّ بالراحة... ولا تهتم بعد ذلك بنوع المصيبة التي حلّت.. المهم أنها حلّت وانتهى الأمر... المهم أن لا تبقى تحت رحمة الإنتظار.. إنتظار المجهول الذي لا تعرف كنهه... أي شيء ما دام دخل عالم الأحياء.. وصار شيئاً يسعى في نطاق الحواس الخمس.. أي أنه دخل المجال المعلوم وخرج من المجهول... فلا بد أن يتابع دورته وينتهي.. تماماً كالمد والجزر.. هكذا الحياة المهم أن نضبط الساعة ونبدأ بالسير، فلا شيء يدوم إلاّ الحي القيّوم... ليست عبثاً هذه الحكمة التي ترددها العامة وكأنها لغو لا معنى له.. إنها حقيقة واقعة.. صحيح أن الأقوال الشائعة هي حكمة الشعوب الحقيقية.

بعد مرور فترة وجيزة من الوقت، سمعت سحر صوت والدها يناديها من الغرفة المجاورة.. نهضت متباطئة.. ومشت.. بادرها أبوها قائلاً:

– ما بك؟ ألم تسمعي الخبر؟

لم تجب، ظلّت صامتة، وعلى وجهها نظرة بلهاء.. تابع الأب:

– دخلت غرفتك وكأن شيئاً لم يحدث... مصيبة هذه.. مصيبة حلّت بنا.. تعالي اجلسي معنا كي نناقش الأمر.

ردّت سحر بصوت مبلوع:

– ماذا نناقش... وهل يحتاج الأمر إلى مناقشة.. قرروا أنتم.. ماذا تريدون أن تفعلوا.. على كل حال هنا لا يمكنكم أن تفعلوا شيئاً...

– وليس منطقياً ولا مقبولاً أن نجلس مكتوفي الأيدي، وكأن الأمر لا يعنينا خاصة وأننا تبلغنا الخبر رسمياً..

وتابع الأب قائلاً: من الأفضل أن أسافر أنا شخصياً.

فقالت الأم: أنا أسافر معك.

قالت سحر: وتتركاني وحدي هنا..

كانت تعلم نتيجة هذا الحوار العقيم سلفاً.. فاختصرت الطريق وكفتهما مؤونة السؤال.. وتابعت:

– الأفضل أن أسافر أنا وحدي.. فحملي خفيف، ولن يضطر الأهل في الشام إلى التكلف في تكريمي، وهم في هذه الظروف

الصعبة.. ولكن الطريق البرية بين دمشق وبيروت أغلقت. وقد سمعت أن شركة إيرفرانس تنظم رحلات جوية مباشرة بين دمشق وبيروت.... غداً أذهب واستطلع الأمر.. والطائرة على كل حال أسرع، ورسوم السفر ليست مرتفعة، بل هي تكاد تساوي أجرة الطريق البري على ما أعتقد.

قصدت سحر مكاتب ايرفرانس، في أول منطقة المنارة.. وعلمت أن هناك طائرة يومياً، في الخامسة بعد الظهر..

– هل أستطيع أن أبتاع تذكرة السفر الآن؟

– نعم في الحال.

– هل يمكنني استعمال الهاتف؟

– تفضّلي

تكلّمت سحر مع والديها وأخبرتهما بالنتيجة، وقالت: يمكنني السفر اليوم فخير البر عاجله..

– كما تريدين.

تابعت سحر إجراءات الشراء:

– اعطني بطاقة الهوية...؟ جواز سفر! هل أنت سعودية؟

– أحمل جواز سفر سعودي.

– هل تريدين تذكرة ذهاباً وإياباً.

– لا.. ذهاباً فقط. سوف أحجز من دمشق عندما أريد العودة.

– انتبهي.. الحجز من دمشق بالعملة الصعبة.

– شكراً على التنبيه.

– كوني في المطار قبل ساعة من الإقلاع.

انصرفت سحر على عجل.. وفي البيت أسرعت لتحضر حقيبة السفر، حشرت في داخلها الحاجيات الضرورية.. قميصاً للنوم، وروب دو شامبر شتوياً.. دمشق في تشرين الثاني باردة.. وتنّورة وكنزة صوفية... ومنشفة صغيرة للوجه واليدين.

أوصلها الوالدان إلى المطار، مع الدعاء لها بسلامة الوصول وبالتوفيق.. وأكّدا ضرورة تطمينهما بأية وسيلة.. رسالة صغيرة مع سائق نقل عام على خط بيروت دمشق، إذا فتح الطريق.. أو إذا أمكن هاتف لجدّة.. ومن جدّة أحد إخوتك يطمئننا، عمّا حصل معك.. تعرفين الخطوط الهاتفية بين دمشق وبيروت

لا تعمل إلا بمذكرة جلب واستدعاء.

* * *

ختمت سحر أوراقها لدى موظف الأمن العام.. وهبطت درجات السلم إلى صالة الإنتظار، ريثما يحين موعد الإقلاع.. ما هذه العجقة.. يبدو أن كل الناس اكتشفوا بسرعة وسيلة السفر إلى دمشق بطريق الجو.. لا شك أنها أسهل من طريق البر.. فكرت سحر..

إنها أول مرة ستنزل في مطار دمشق.. يقولون هذا المطار كبيراً جداً وأنيق.. ومجهز بأحدث الوسائل.. لا بأس.. هذه السفرة المفاجئة ستمكنني من رؤية شيء جديد.. أعلنت المضيفة في الطائرة أنّ الرحلة ستستغرق نصف ساعة وخمس دقائق.. فكرت سحر.. لا بأس بها هذه المضيفة.. شكلها مقبول، وزي المضيفات الذي ترتديه لائق بها.

نصف ساعة.. أي سنصل إلى دمشق في حوالي الخامسة والنصف، ونصف ساعة لإنهاء معاملات الأمن العام، تصبح الساعة السادسة مساء.. والمطار يقع في منطقة الغوطة.. والطريق من المطار إلى دمشق يستغرق ساعة من الزمن.. أي لن أصل قبل الساعة السابعة.. فيكون الظلام قد أرخى ظلاله والعتمة

دامسة.. وأنا وحدي.. والطريق من المطار إلى مدينة دمشق، طريق زراعية خالية إلاّ من السيارات التي تنهب الأرض دون توقف.. أرجو أن أعثر بسائق ابن حلال.. لا أحد يعلم أنني قادمة ليكون بانتظاري ومرافقتي في هذا الطريق الموحش الطويل.. لو تعطلت السيارة لسبب ما، أو ارتطمت بسيارة أخرى وسقطتُ أنا ميتة.. أكيد لن يعلم بي أحد.. أعوذ بالله سترك يا رب.

أنهت سحر معاملات الأمن العام في مطار دمشق، ومن حسن حظها أنها بعد أن اتفقت مع سائق السيارة.. حضر رجل وامرأتان، ويبدو أنهم لا يعرف أحدهم الآخر، ويريدون سيّارة، طلبوا من سحر أن يشتركوا جميعاً بالسيارة، ما دامت وجهتهم واحدة. وافقت سحر على الفور، ورحبت بهم.. وأسعدتها الفكرة جداً.. لقد تخلصت من خطر أول هاجس... لن تكون وحدها في الطريق.

يقع بيت شقيقتها جمانة في أول طريق المطار للخارج من دمشق. إنها منطقة أوتوستراد الزاهرة.. منطقة شاسعة جداً وخالية تقريباً من العمران، أو بالأحرى غير مكتظة بالعمران..

ليس فيها إلا بعض البنايات المتناثرة هنا وهناك.. والشوارع المحيطة بالأوتوستراد قد شقّت وحددت معالمها، ولكنها تعجّ بالأتربة ولم تزفّت بعد. والإضاءة خافتة جداً.. وأعمدة الجسر منتصبة في الهواء تصفعها الريح، ولم يُرفع الجسر فوقها بعد... إنها منطقة تبشر بمستقبل جميل مثلها مثل جميع مناطق دمشق وشوارعها الواسعة العريضة، وساحاتها المشعشة بالأنوار ليلاً، وببحيرات المياه والنوافير التي تعمل في الصيف لترطّب الجو، أما في الشتاء فالنوافير تسكت، والأنوار تخفت قليلاً توفيراً للطاقة.. لقد غدت مدينة دمشق من أجمل المدن وأحدثها وأكثرها نظافة.. ولكن هذه المنطقة التي تسكن فيها جمانة وعاصم ما زالت تحت العمران، لم تنته بعد. إنها الآن موحشة.. وعندما تصل سحر يجب عليها أن تنتبه جيداً لموقع المنزل كي تدلّ السائق عليه.

بعد أن وصلت السيّارة إلى دوار المطار على مدخل مدينة دمشق، قال أحد الركاب، وكان رجلاً متوسط العمر، للسائق: أوصل الآنسة أولاً، فنحن صادرنا حقها في السيارة، ومن الواجب تأمين وصولها إلى حيث تريد أولاً..

ذكرت سحر للسائق أن هناك طريقاً رملية وعرة قليلاً، ولكنها مختصرة جداً، وعندما نخرج منها نصبح في الساحة تحت الجسر في منطقة الأوتوستراد، وما علينا إلا أن نجتاز الساحة فنصل إلى البيت.

أجابها السائق: أعرفها... أعرفها.

وتابعت سحر، كأنها تكلم نفسها: في الواقع أنا لا أعرف طرقات دمشق الحديثة، فإنني لا أقيم هنا، وإنما آتي للزيارة في السنة مرة.. ولحسن الحظ أنني كنت هنا منذ مدة.. وبيت أختي يطل على الساحة.. وكنا نرى هذا المفرق الوعر من الشرفة.. وقيل لي حينئذٍ إنه عندما ينتهي سيتصل بطريق المطار مباشرة.. الحمد لله.. إنني ما زلت أذكره.. ها قد وصلنا إلى الساحة.. الحمد لله..

وبعد أن تأكد السائق، والركاب الآخرون أن هذا البيت هو الذي تريده ودعوها بقولهم: الحمد لله على السلامة..

وقفت سحر أمام البناية ولاحظت أن نوافذ الطابق العلوي من البناء معتمة.. قرعت الجرس المثبت على الباب الحديدي

الخارجي للبناء المؤلف من طبقتين.. وهو على شكل فيلاً صغيرة بدون حديقة. الطابق الأرضي فيه عبارة عن محلّين تجاريين لهما واجهتان زجاجيتان تطلان على الطريق.. وخلف الباب الحديدي دهليز قصير ينتهي بدرج معقوف يصعد فيه القادم إلى الطبقتين العلويتين.. كل طبقة عبارة عن بيت مستقل تماماً.. تسكن جمانة الطبقة العلوية، وفي الطبقة السفلى عائلة أخرى.

الوقت تأخر.. وهواء دمشق يلسع الوجه واليدين، خاصة هنا، المنطقة شاسعة ولا زالت مكشوفة، فالعمران يختزل عصف الريح ويمتص الصقيع.. ماذا تفعل.. عاودت سحر قرع الجرس.. ولما يئست، قرعت الجرس الآخر الموصل لبيت الجيران لتعلم ما الخبر، وتقرر نوع الخطوة التالية التي عليها أن تخطوها.

أطلّت الجارة من النافذة، وصرخت: من القادم.. فضوء الشارع خافت ولم تستطع تمييز القادم. ردّت سحر: إنني أخت جارتك جمانة..

– حسناً، تفضلي بالدخول، سأفتح لك الباب، لكن عندما تدخلين أغلقي الباب الحديدي خلفك جيداً.

حملت سحر حقيبتها بعدما فتحت الجارة الباب الخارجي بواسطة زر كهربائي داخلي، وصعدت السلم الحجري.. والهواجس تنتابها.. ترى أين ذهبت جمانة والأولاد.. واحد من اثنين، إمّا لعند خلدون أخي زوجها.. أو لعند هند أختها. ولكن إذا افترضنا ذلك صحيح.. فكيف أصل إلى هناك.. أنا أعرف إسم المنطقة بشكل عام، فخلدون يسكن في منطقة المزرعة، وهند في ركن الدين، ولكن ليس بإمكاني أن أدلّ السائق على مكان المنزل بالتحديد.. ماذا أفعل...

كانت الجارة واسمها أم بسام وهي الزوجة الثانية لزوجها واسمه أبو محمد. يبدو أن سحر قطعت عليهما جلسة أنس أعدّاها لنفسيهما. فأم بسام قد ارتدت ثوباً مخملياً طويلاً نبيذي اللون، مكشوف الصدر، ومطرزاً بالسيلان والقصب المذهب.. وزينت وجهها وشعرها بالأحمر والأخضر والكحل.. أمّا أبو محمد فكان يرتدي سروال البيجاما المخرفج مع القميص الداخلي القطني المكشوف الصدر والذراعين.... والمدفأة التي تعمل بالمازوت.. متوقدة.. والجو دافيء وحميم.. ولكنه لم يكن مريحاً قط بالنسبة لسحر.. جلست نصف جلسة على مقعد طويل يدعونه في دمشق

شاز لون.. وبادرت قائلة:

– آسفة للإزعاج.. ولكن جمانة.. إلى أين ذهبت؟

– إنها الآن عند هند، أختها هي والأولاد.

– كيف حدث الأمر، هل تعلمان؟

رد أبو محمد:

– والله يا أختي.. كان الوضع مخجلاً جداً.. جاءت سيارات الجمارك، وطوقت المكان، وصعدوا إلى المنزل، وفتشوا البيت كله.. حتى أن الرجال دخلوا إلى بيتنا أيضاً وفتشوه.. وكذلك إلى المحلَّين الذين في الأسفل... الحقيقة صرنا فرجة...

فكرت سحر.. فرجة.. ترى ما أصل اشتقاقها، وكيف تحولت من فرجة الحائط إلى هذا المعنى... وهزَّت رأسها: نعم وبعد..

تابع أبو محمد:

– ولكنهم لم يجدوا شيئاً في المنزل.. يقال إنهم عثروا على ثلاثة مستودعات كبيرة للكريستال عائدة لعاصم، وكلها صودرت وكوِّمت في مبنى الجمارك في البرامكة... ولكن لا

تخافي.. قلت لجمانة: إن نصف تجار البلد موقوفون.. إنها حملة واسعة، حتى أن هناك نساء موقوفات أيضاً من اللواتي يتاجرون بالألبسة الجاهزة المستوردة من أوروبا.. كلهن صودرت بضائعهن.

قالت سحر: منذ متى حصل ذلك.؟

– في اليوم التالي لرحيلكم مباشرة... وكان عزاء جمانة الوحيد أن المعمعة لم تحصل في أثناء وجودكم هنا.. قالت لو تأخرتم يوماً واحداً لكان الأمر صعباً جداً، وخجلها سيكون مضاعفاً أمام الوالد والوالدة.

سألت سحر: هل هاتفكم يعمل؟ لأحدّث هنداً فهم لا يعلمون بمجيئي ربما يأتي زوجها فيأخذني إليهم..

– والله يا عيب الشؤم منك... الهاتف معطل منذ أيام.. ولكن نامي عندنا الليلة، وغداً تذهبين، فالصباح رباح.

– شكراً، لا أستطيع.. فالسرعة في العمل واجبة في ظروف كهذه.. ربما يمكنني أن أساعد بشيء ما...

* * *

نزلت سحر درجات السلّم واستلمت الطريق... لقد كان الظلام دامساً، إلا من الأضواء الشاحبة.. عبرت الساحة المترامية الأطراف إلى الجهة المقابلة لبيت عاصم وجمانة، ووقفت تحت الجسر، حيث سيارات الأجرة المتجهة إلى وسط المدينة.

من عادة سحر كي تتجنب مرارة الإنتظار أن تنظر إلى الساعة كلما شرعت بأي عمل مهما كان صغيراً أو كبيراً... ثم تنظر إلى الساعة عند انتهائه.. بذلك تستطيع أن تعطي الأشياء حجمها الحقيقي.. فلا يدخل عامل التوتر أو التذمر من نوع العمل في حساب الزمن الذي يستغرقه.. لذلك فهي تجد أن الأشياء متساوية تقريباً. المهم أن نعرف متى بدأت ومتى انتهت، وكل شيء سوف يمضي بسلام أو غير سلام لا فرق. لكل شيء وقت.. كان الزمن لعبتها.. وهي لا تسابقه وإنما تقيسه أو تقيس حجم الأشياء به..

توقفت سيارة.. كان فيها امرأتان وولد صغير، جلسوا في المقعد الخلفي.. سألت سحر: تكسي أو سرفيس.

– كما تريدين.. خمسمائة متر إلى الأمام وينزل هؤلاء الركاب.. إلى أين تريدين الذهاب؟

– أريد الذهاب إلى المهاجرين، قرب جامع المرابط..

فكرت سحر أن منزل السيد نبيل وكيل الوالد أفضل من تذهب إليه.. الآن. فزوجته ليلى صديقتها، وعندها سيارة.

من سنوات والسيد نبيل الرشيدي يدير أعمال عزت بك جواد في دمشق بعد أن رفع عنه العزل السياسي بعد الحركة التصحيحية، وأعيدت الأموال المصادرة، وسمح للسياسيين والصحافيين والإقتصاديين أن يعودوا إلى البلد معززين مكرّمين بعد أن شردتهم حركة ٨ آذار القديمة.

وقد توثقت أواصر الصداقة والعمل التي تجمع عائلة جواد وعائلة الرشيدي عندما تزوج الأخ الأصغر للسيد نبيل، وإسمه حازم من هند جواد الإبنة الوسطى لعزت بك.

والصداقة بين سحر وليلى توطدت منذ الأمس البعيد حينما تزوج السيد نبيل من ليلى وأتى بها إلى بيروت عروساً في الخامسة عشرة من عمرها، وكان هو يكبرها بعشرين عاماً.. أتى لقضاء شهر العسل بضيافتهم... ومنذ البداية عوملت ليلى في بيت عزت بك جواد كأنها واحدة من بناته، ولم تنقطع الصلة ولا الزيارات

والإقامة في بيروت.. إلا أن ظروف الحرب الأهلية غيَّرت العادات ولم تغيِّر المشاعر والعواطف. وكانت سحر بالتالي عندما تأتي إلى دمشق لأداء الإمتحانات في نهاية كل سنة جامعية، كثيراً ما تبيت ليلة أو ليلتين عندهم في أثناء إقامتها.. واكتشفت كلٌّ من ليلى وسحر أن لديهما كثيراً من النظرات المشتركة في أمور الحياة والناس والمجتمع والدين... ومع أن ليلى تحمل فقط الشهادة المتوسطة الإعدادية ولكن عقلها متفتح جداً، وعندها قدرة على الحكم على الأمور، وقدرة على التصرف في الأزمات.. وكانت سحر كلما عرفت ليلى أكثر واقتربت منها أكثر وأكثر تكتشف فيها الفطرة السليمة والحس اللاقط، وتقول لنفسها: ليست الشهادات المدرسية وحدها تصنع المرأة.

فيما مضى كان على من يريد الذهاب من حيّ الميدان والمنطقة المحيطة به إلى حيّ المهاجرين، أن يجتاز وسط مدينة دمشق، ويضطر لعبور كثير من الطرقات الفرعية المتشعبة، اما الان فالأوتوسترادات الواسعة الدائرية اختصرت المسافات.

لذلك فما إن اجتازت السيارة أوتوستراد الزاهرة إلى دوّار باب المصلى، اتجهت إلى دوّار كفرسوسة، وتابعت السير قدماً

إلى البرامكة ثم انعطفت يميناً نحو ساحة الأمويين، وبعد رحلة نصف دائرية حول الساحة اتجهت صعداً نحو شارع عدنان المالكي، ثم اتجهت يساراً إلى الجادة الأولى من حي المهاجرين.

قال السائق: ها هو جامع المرابط.

قالت سحر: إن البيت الذي أقصده في نزلة المرابط، في البناية المقابلة للجامع تماماً.. ولكن أخشى أن لا أجد أحداً..

وكان السائق قد فهم منها في أثناء الطريق أنها قادمة من بيروت، فظن أنها هاربة من المذابح، وأخذ يكيل كلمات العطف والرثاء ويدعو على الظالمين. وسحر بدورها لم تنف الظن، ولم تقطع شكَّه باليقين.. وسكتت عن تصحيح اعتقاده، رغبة منها في الحفاظ على عنفوانه ونخوته، فيما لو جدثته نفسه بشيء لا يرضي الله... وهي وحيدة معه في السيارة، والعتمة ترف بأجنحتها تروح وتجيء على طريق طويلة خالية لا يدب فيها إلا السيارات التي تسابق الريح. صحيح أن المباني مصطفة متلاصقة على جانبي الطريق، ولكن الطريق عريضة جداً وطويلة...

قال لها السائق: سأنتظرك حتى تتأكدي أن أصحاب البيت هم في البيت فعلاً.. وإذا لم تجدي أحداً فأنا آخذك إلى بيتي، فأنت مثل ابنتي.. عندي أربع بنات وزوجتي.. تبقين إلى الغد، فالصباح رباح.

شكرت سحر أريحيته، فقد كانت نوافذ البيت مضاءة ويبدو أنه آهل بالسكان.

صعدت درجات السلم، ومن حسن حظها أن البيت في الطابق الأول.. قرعت الجرس.. انفتح الباب على وجه أبيض صغير، إنها إبنة ليلى الكبرى... قالت:

– أهلاً.. أهلاً خالة سحر، تفضلي..

استبشرت سحر خيراً.. فسألت: هل ماما هنا؟

– لا، ولكنها ستأتي حالاً.. فهي هنا أقصد عند الجيران.. سأناديها.

جاءت ليلى، وكانت قبلات متبادلة وسلام وكلام والتحيات التي لا بد منها، والسؤال عن الأهل وما إلى هنالك.. قبل

الدخول في الموضوع، فهي أدركت سبب قدوم سحر المفاجيء لا ريب. ولكنها تنتظر طرحها للموضوع، فالموضوع حساس.. فهو ذو جانب إنساني لا شك.. خراب بيت، قطع رزق.. مصيبة.. ولكنها لها جانب أخلاقي، مشاكل حول دفع رسوم جمركية.. مخالفة للقانون.. حبس على ذمة التحقيق.. أمور محرجة.. لا يخفف منها إلا أن الحملة كبيرة، وشملت أعداداً كبيرة ينتسبون إلى كبار العائلات، التي لها مكانة اجتماعية محترمة. ولا يخفف منها أيضاً إلا أنها تدخل تحت القول الشائع: الموت مع الناس رحمة.

قالت سحر أرجو أن تتصلي لي بهند، لكي يأتي حازم ويحملني إليهم.. قالت سحر ذلك مباشرةً دون مقدمات، ولم تخوضا في أية تفاصيل.. أجابت ليلى: أنا أوصلك. فردّت سحر: لا أريد أن أتعبك.

كانت ليلى متديّنة، تحجبت حجاباً شرعياً عن اقتناع، والتحقت بإحدى حلقات الدروس الشرعية النسائية المنتشرة في دمشق.. درست فقه الشافعي.. حاولت العمل بما علمته إلى أقصى حد.. لا تصافح الرجال الغرباء.. ولكنها تتولى بنفسها

كل ما يخص بيتها.. تقود سيارتها بنفسها.. أشرفت بنفسها على بناء بيتها الجديد هذا.. ناقشت المهندس وعمال البناء في تقسيم الغرف وترتيبها وفي نوع الرخام المطلوب وفي طريقة زخرفة سقف الصالون.. ذهبت إلى تجار الموبيليا أشرفت على تحميل الأثاث ونقله إلى المنزل.. وحملت الأثاث القديم إلى المنجّد لإصلاح ما يمكن إصلاحه.

كانت شابة وجميلة لا تتزيّن عندما تخرج إلى السوق، ولا حتى في البيت، إلا في حفلات الأعراس وماشابهها. حديثها ينم عن معرفتها العملية بكثير من شؤون الحياة.. ولكن الناظر إليها في جلسة اجتماعية، لا يستشف من منظرها هذه القدرة، يظن أنها كومة ثياب لا يظهر منها إلا الوجه والكفّين.. تنظر دون أن ترى وتسمع دون أن تعي.. ولكنها تفاجيء المستمع حين تشترك في الحديث بصوت عالٍ واضح النبرات فتصحح معلومة عن أسعار العملات أو عن الإجراءات الجديدة للقوانين.

أجابت ليلى بإصرار: ما في تعب.. الحقيقة انني كنت أنوي أن أزور هندا وأطمئن عليهم جميعاً..

حملت سحر حقيبة السفر الصغيرة.. نزلت درجات السلّم...

جلست في السيارة إلى جانب ليلى.. انحدرت السيارة في طريق معتمة قليلاً بدأت تشعشع شيئاً فشيئاً حتى بلغت ذروة الإشعاع في ساحة عدنان مالكي.. اتجهت السيارة إلى منطقة الجسر الأبيض وانعطفت باتجاه منطقة ركن الدين حيث يقع بيت هند وحازم... ونظرت سحر إلى الساعة.. كانت تشير إلى العاشرة ليلاً.. خمس ساعات مضت منذ ودّعت والديها وأقلعت الطائرة من مطار بيروت.

- ٦ -

كانت هند جواد سهلة ليّنة مثل أغنية شعبية تنساب من صدور العاشقين.. هكذا هي من الداخل. أما من الخارج فهي بيضاء طويلة، شعرها قصير بنّي فاتح مقصوص ألا غارسون دائماً.. يتموج بالشقرة حين تنعكس عليه أشعة الشمس.. كتفان عريضتان، وقامة مستقيمة.. تضرب الأرض بقدميها حين تسير.. ودائماً في عجلة من أمرها.

لملمت هند بيتها بعد ذهاب ولديها وزوجها.. دائماً يخرج الثلاثة في السابعة والنصف صباحاً، فيوصل حازم الولدين إلى المدرسة ويذهب ليفتح محله التجاري الصغير المخصص لبيع ملابس الأطفال.. يهيء المحل لاستقبال الزبائن.. يخرج السلال البلاستيكية المليئة ببضاعة أقل سعراً.. يزيل الغبار عن الواجهات

الزجاجية.. وفي حوالي العاشرة توافيه هند إلى المحل. فيتناولان طعام الإفطار سوياً، غالباً ما تحمل هند الطعام من البيت، وأحياناً يطلب حازم من المطعم الصغير المجاور للمحل صحنين فول أو حمص بالطحينة مع السرفيس المشهّي: فجل، بصل، نعنع أخضر.

عندما وصلت إلى المحل.. كانت على غير عادتها تبدو على وجهها مسحة من الكآبة.. سألها حازم: ما بك؟

سكتت هند، كانت هي نفسها لا تدري ما بها.. قالت: والله لا أعلم حقيقة.. جائز أنني حزينة لسفر أهلي.. فنحن ما إن نعتاد على وجودهم بيننا حتى يرحلوا.. ونعود لمحاولة التعود على غيابهم من جديد.

ردَّ حازم بأسلوب فكه كي يسرّي عنها: على كل حال أنا أهلك جميعاً، أنا أمك وأبوك وأختك سحر.. ألا أفي بالحاجة؟ أمّا أختك جمانة فلا أطمح أن أكون بدلاً عنها.. ويكفي أنها هي تسد فراغ الحمو والحماة.. وتابع: هل جدّ معها شيء بخصوص الوظيفة.. ربما إذا اشتغلت.. شغلها عملها عن مناكفتي.. وإقلاق سعادتي الزوجية..

كان حازم الإبن الأصغر في عائلة مكونة من ستة شباب وبنتين. توفيت أمّه وعمره أربعون يوماً. وربّته خالته أخت أمه والتي تزوجها أبوه، لكي تربّي أولاد أختها القاصرين.. وحرمها من الإنجاب، كي لا تتعلق بأولادها، وتهمل أولاده. وكانت الحجّة أم حازم، كما يدعوها أقاربها ومعارفها.. تغتنم كل فرصة لكي تحدث عن معاناتها الصحية من جرّاء تعمد زوجها حرمانها الإنجاب.. كانت تردد دائماً: كان يحب نفسه فقط، الله يرحمه.

وأصبح حازم بمثابة ابنها، فهو يناديها أمّي.. وهي تتصرف كأنها أم حازم حقيقة لا مجازاً. حتى الناس اعتادوا أن ينادونها بأم حازم.

وعائلة الرشيدي، عائلة إقطاعيّة، كبيرة العدد، قرى عديدة من ضواحي دمشق الجنوبية، كانت ملكاً لعائلة الرشيدي.. ومع أن قسماً كبيراً من أراضيهم قد أمّم بعد صدور قوانين الإصلاح الزراعي. فقد بقي لكل فرد من أفرادها مساحات شاسعة من الأراضي، حتى بعد اقتطاع الدولة حصّتها حسب قوانين الإصلاح.

إلا أن الجيل الجديد من هذه العائلة لم ينصرف كل أفراده

للزراعة. بل عملوا في مهن أخرى، فمنهم الطبيب أو مدير المدرسة، ومنهم السياسي، ومنهم الصحافي ومنهم التاجر.

منذ فتح حازم عينيه على الدنيا، وأصبح يرى إلى ما حوله بعين واعية. عرف أن اثنين فقط من إخوته انصرفا إلى زراعة الأرض والعناية بها.. وكان المنصرف منهم للزراعة يتولّى العناية بأرضه وأراضي إخوته. فيقضي معظم أيام الأسبوع في الضيعة ويترك زوجته وأولاده في المدينة. وقد اتخذ لنفسه زوجة ثانية من كبار عائلات الفلاحين، فكان له زوجة في الضيعة وزوجة في المدينة.

أما الأخ الثاني فقد تزوج إحدى بنات الفلاحين واستقر نهائياً في الضيعة فلا ينزل إلى المدينة إلا في الأعياد والمناسبات العائلية.

كان حازم أصغر إخوته.. لم يعرف أمّه، وعندما توفي أبوه كان في حوالي العاشرة.. استأثر حازم بحب إخوته وعطفهم.. كل منهم يحسب نفسه أم حازم وأباه.

عاش حازم بريئاً صافياً.. الحق حق في نظره.. والخطأ خطأ. لا مواربه ولا محاباه. طموحاته ليست كبيرة جداً. وأحلامه

بسيطة وعادية، زوجة وأولاد، وبيت خاص به.. متع صغيرة.. اكلة شهية نزهة خلوية.. وإذا تمت هذه النزهة في الضيعة فذلك يفي بالحاجة. دخل المدرسة وتدرَّج في سنوات الدراسة.. وصل إلى صف الشهادة الثانوية.. لم ينجح في المرة الأولى، أعاد الكرة.. لم يفلح.. لا بأس.. صرف النظر عن إتمام الدراسة.. دخل الجيش لإداء الخدمة الإلزامية.. توسط له إخوته، فقضى مدة خدمته محاسباً في إحدى الوحدات العسكرية بالمدينة.. كان غالباً ما ينام في بيت العائلة لا في الثكنة.. انتهت الخدمة العسكرية.. عمل مع أخيه في مدرسة للأطفال، كان قد أسسها بتمويل خاص، وجعل لحازم حصة فيها. فكان حازم في المدرسة يعرف بأخي الأستاذ..

وأخيراً فكرت أمّه وإخوته بتزويجه. وهم يريدون عروساً تليق به. فهو شاب فتي، وسيم، وغني، وابن عائلة.. أي أنه زوج مثالي.. ووقع اختيارهم على هند بنت عزت بك جواد، فهي مثله جميلة وبنت عائلة مرموقة، وفتية، تصغره بأربعة أو خمسة أعوام، وست بيت، وفوق ذلك مستواهما العلمي واحد.. كلاهما وصل إلى الباكالوريا ولم يحصل عليها.

مشكلة واحدة في هذا الزواج يجب تجاوزها، وهي أن عليه الإنتقال والسكن في بيروت. لأن أولاد عزت بك ذكوراً وإناثاً لا يتزوجون بعيداً عن اهلهم.. ذلك في فترة الزواج الأولى.. سنتين على الأقل، يجب أن يكون كل شيء تحت إشراف الأهل، وبعد ذلك لكل منهم شأنه. يذهب أينما شاء.

إلا أن هذه المشلكة بالنسبة لحازم لم تكن في حقيقتها مشكلة.. فالسكن في بيروت ميزة.. وهل يطول المرء أن يعيش ويسكن في بيروت.. إنها عروس الشرق الأوسط ولؤلؤة البلاد العربية.. بالنسبة لحازم كان السكن في بيروت مدعاة فخر بين أصدقائه ومعارفه.

اما بالنسبة للحجّة أم حازم فكان السكن في بيروت هو علة هذا الزواج الوحيدة. التي أرّقت ليلها وعكّرت نهارها.. وأراقت الدموع من عيونها أنهاراً. ولكن ذلك لم يجد نفعاً، فقد تم الزواج أخيراً وبمباركتها بعد أن رأت تلهف حازم وإخوته. وخاصة تلّهف اخيه الأكبر السيد نبيل الذي اعتبر القضية قضيته.

اشترى حازم منزلاً في بيروت وأثثه هو وعروسه. أي هما اللذان اختارا الأثاث.. نوعه وشكله.. أما التمويل فكان هدية

من والد العروس وأخوة العريس..

وكان لهما عرس جميل باذخ، تحدثت عنه الصحف وحضره كبار الشخصيات. وانتقل العروسان إلى منزلهما.. ولم يمض شهران على استقرارهما في البيت حتى اندلعت الحرب الأهلية.. فكانا يستقران في البيت ليلة ويفرّان منه ليلات. مضت سنة الزواج الأولى بين كرّ وفرّ، من بيروت إلى دمشق.. وقد سرق بعض أثاث المنزل في إحدى فترات الهروب، وفي مرة ثانية احتل البيت من قبل مسلحين.. وأخيراً وبقدرة قادر تمكنوا من إخراج المسلحين.. وبيع البيت قبل أن يصبح كومة أحجار لأنه يقع على خط التماس بين المنطقتين.

وتم الإنتقال نهائياً، حاملين معهما ما تبقى من جهاز العرس إلى دمشق. وهناك ساعده أخوه الأكبر على استئجار محل تجاري صغير خصصه لبيع ملابس الأطفال...

لم تدر هند كيف تم انتقالها من بيروت إلى دمشق، كانت تحس أنها تفعل ما تفعل دون وعي، ودون تخطيط مسبق.. كانت تحلم بالعودة إلى دمشق، يوما ما. مع أنها حين غادرتها

أول مرة كانت دون العاشرة من عمرها، سنوات الطفولة الواعية التي يتذكر المرء تفصيلاتها، قضتها هند في بيروت.. فكان لها صديقات وأصدقاء، وكانت في المدرسة تعتبر فتاة مثالية.. جمال واخلاق واجتهاد.. كانت الأولى في صفها، إلا أنها في قرارة نفسها لا تحب الدرس، ولا تطيق حمل كتاب. وكانت في البيت تتحيّن الفرص لتلبّي طلبات والدتها، فكانت أول من يهرع للمساعدة في أعمال البيت، وكانت أول من تعلمت طهو الطعام، وبرعت به.. حتى أنها في أثناء العطلة الصيفية كثيراً ما كانت تتولى إعداد الطعام لأفراد العائلة كافة.. وللضيوف حين وجودهم، وتتقاسم بقية الأخوات أعمال البيت. كانت نشيطة جداً، وذات مروءة ونخوة وهمة عالية في مساعدة كل من يطلب المساعدة من إخوتها.. تتحرك بنزق وعنف، توحي للناظر إليها بأنها رياضية من الطراز الأول، وكانت فعلاً بارعة بمختلف فنون السباحة والغطس والقفز إلى الماء من علو خمسة أمتار.

أما عواطفها فلم يستثرها أحد، فهي لم تعرف الحب قط، رغم أنها في مدرسة مختلطة، لم تعرف مشاعر الحب إلا نحو حازم... ولا زالت تذكر جيداً حين فاجأتها أختها الكبرى سحر

وهي واقفة خلف الباب في غرفة النوم تبكي عشيّة خطبتها.. سألتها سحر ملهوفة: ما بك، فقد كانت تتمتع بمكانة خاصة عند سحر.

اجابت: لا شيء.. ولكن سيسافر حازم غداً صباحاً، ولا أعرف متى سأراه ثانية..

فردت سحر متعجبة ضاحكة:

– بهذه السرعة أحببته.. لم تره إلا مرة واحدة، يوم جاء مع نبيل وليلى للتعارف، وفي آخر النهار تم الطلب الرسمي... وسافر الجميع بعد تحديد يوم حفل الخطبة.. وهذه هي المرة الثانية.. ولم ترد يومها هند وإنما تابعت البكاء بحرقة ولوعة.. وتركتها سحر تبكي ما شاء لها البكاء، وتستمتع بعذاب الهوى، ولسع الفراق.

سكنت هند في دمشق مع حماتها، ولم تستعمل من جهاز عرسها المتبقي بعد النهب، سوى غرفة النوم. والباقي كوّم في مستودع للعائلة في أحد الأحياء الشعبية. وعوملت كأحسن ما تعامل العروس المدلّلة، فهي زوجة الصغير المدلّل فلا مسؤوليات

جسيمة ولا واجبات اجتماعية مفروضة.. ولا عتب عليها وعلى زوجها في التقصير، كل شيء مسموح به لهما.

استسهلت هند الحياة بهذه الطريقة، وانساقت معها، ولكنها كانت تشعر أنها وحيدة، وأنها محاطة بجدارٍ لا ترى لنفسها منه مهرباً.. كانت قد اعتادت الفضفضة في الحديث مع أخواتها، ولم يكن سهلاً عليها أن تتخذ صديقة حميمة تشعر أنها تنطلق معها على سجيّتها وتجد منها أذناً صاغية.. تناقش رأيها باحترام وتقدير،لا أذناً مستغربة متعجبة، وإن كانت توحي بالتحبب.. سئمت اللهجة التي يخاطبها بها الآخرون... من... العروس تتكلم... اسمعوا العروس تتكلم.. كل ما تقوله العروس يجب أن ينفذ.. عبارات تقال على سبيل التحبب، ولكن هند لا ترى منها إلا الجانب الساخر.. كانت تكره هذه الصورة المسطّحة لشخصيتها التي تظهر للآخرين..

تقول هند لنفسها.. ربما لأنني لم أحصل على البكالوريا كسائر اخواتي.. ولم أدخل الجامعة.. لو لم أكن هكذا حقيقة لما عاملني الآخرون بهذه الطريقة..

– حازم أريد أن أحصل على البكالوريا.. سجّلني هذا العام..

واجلب الكتب المقررة.. صحيح أنني درست في بيروت ولكنّ كثيراً من الناس يحاولون الحصول على الموحدة السورية، وأنا سأفعل ذلك، ما دام زواجنا هو الذي حال بيني وبين الحصول عليها في لبنان.

وتُعجب الفكرة حازماً.

– عظيم، إذا حصلت على البكالوريا.. فربما نستطيع أن نفتح مدرسة للأطفال خاصة بنا.. فنأخذ الرخصة باسمك.. لأن صاحب المدرسة الخاصة يجب أن يحمل البكالوريا على أقل تقدير...

وتكبر أحلامهما.. هكذا نستقل عن أخي ويكون لنا شيء خاص بنا... وروضات الأطفال تدرّ ارباحاً لا بأس بها.. والوزارة لا تفرض رقابة مباشرة عليها.. ولا نحتاج إلى تعيين مدير من قبل الوزارة.

تبدأ أولى الخطوات العملية لتنفيذ المشروع.. وهي الدراسة.. ولكنها لم تستطع إتمام أي كتاب من المنهاج.. وتشعر بالأسى.. لماذا أتضايق من القراءة.. صحتي ممتازة.. عيناي لا تشكوان من

شيء... ربما نوع القراءة.. لأمرّن نفسي على قراءات في غير الكتب المدرسية..

– حازم، اشترك لي بمجلة العربي ومجلة المختار.. ففيهما موضوعات متنوّعة وعلى مستوى، وتمنح المرء ثقافة عامة... وترتب هند لنفسها برنامجاً للقراءة... بعد أن يذهب زوجها إلى العمل والولدان إلى المدرسة... تترك أمور البيت كما هي، وتجلس على كرسي وتمدّ ساقيها على كرسي آخر.. وتقرأ مدة ساعتين.. سارت الأمور سيراً حسناً... ومع مرور الأيام بدأت تستمتع بالقراءة... وأصبح لها موضوعات طريفة تتحدث بها وعنها في اللقاءات الاجتماعية.

ولكن ما الفائدة.. لن تحصل على البكالوريا بهذه الطريقة.. وتفتر حماستها قليلاً.. ولكنها تتابع القراءة إلا أن حبّها للحركة والعمل العضلي أكبر..

– حازم، أريد أن أنتسب إلى دار الألسن.. فإنني أكاد أنسى ما تعلمته من الفرنسية في بيروت.. وفي المعهد يكون في المجال فسحة للمحادثة.

– حسناً، كما تريدين.

وتعجبها الفكرة.. مرتان في الأسبوع بعد الظهر.. ترتدي ملابسها، وتسرّح شعرها، وتتزين زينة خفيفة تناسب كونها تلميذة من جديد.. كانت المدرّسة فرنسية الجنسية.. والطلاب مضطرون للتحدث بالفرنسية كل الوقت.. الصف محدود العدد.. والطلاب ذوو مستوى علمي عال.. فهذا طالب طب أسنان.. وذاك مهندس كهرباء.. وآخر أنهى إجازة آداب العربية ويريد التخصص في باريس.. في هذا الجو وجدت هند نفسها الضائعة واستعادت إحساسها بالحياة.. كانت سعيدة منطلقة.. خاصة وأنها كانت متفوّقة عليهم جميعاً بحكم تأسيسها القوى في مدارس بيروت.

ولكنّها.. لم تتقدم لامتحان آخر الفصل.. لقد تزوجت أختها جمانة من عاصم ابن الخالة وداد.. وأتت للسكن في دمشق..

جمانة تكبرها بثلاثة أعوام، ولكنها رفضت أن تتزوج قبل أن تتخرج من الجامعة..

جاءت جمانة.. وتغيرت حياة هند تغيّراً كاملاً. فاصبحت

جمانة هي شغلها الدائم... وهاجسها الوحيد.. صار للحياة مذاق أجمل ونكهة أحلى.. دمشق يا دمشق.. أيتها المدينة الحبيبة.. يا اغنية تترنم بها الضلوع.. يا حجارة تعتّقت في خوابي التاريخ.. أتى فارسك العربي القديم.. وأعاد تشكيل ملامحك.. وعادت الطيور المهاجرة تغطّي السماء والأشجار.. وأسطحة المنازل.. عاد الشتيت المغرّب.. والمسافات تدانت.. وأصبح المغترب مقيماً..

صارت دمشق وضواحيها مسرحاً لأفراح هند وجمانة.. أفراحهما الصغيرة، ومتعهما البريئة.. كل يوم تذرعان طرقاتها سيراً على الأقدام.. تكتشفان هنا شرعاً فرعياً.. وهناك رصيفاً لا معاً انتهى رصفه منذ وقت قريب..

وتتعرفان بمطعم صغير في ركن منزوٍ أو محل لتناول عصير الفواكه والحلوى المثلجة.. تقومان بزيارات للأهل والأصحاب.. وتحط عصا الترحال قبيل الظهر.. تذهب هند إلى محل زوجها، حيث تساعده قليلاً في إنجاز بعض المبيعات، حتى يحين موعد العودة إلى البيت.

وجمانة تذهب إلى بيت عاصم الصغير – قن الدجاج الذي

أعاد تحضيره ليستقبل عروسه القادمة والهاربة من أزير المدافع ورصاص القنص، والباحثة عن سويعات نوم هانيء في عتمة الليل..

وصار للعائلتين الصغيرتين عاصم وجمانة وحازم وهند خطط مشتركة للنزهات... وفي يوم قالت الحاجّة أم حازم لهند: إدع أختك وزوجها إلى الضيعة لقضاء يوم الجمعة أو عطلة نهاية الأسبوع.. فترد هند متعجبة: أختي.. لن تعجبها الضيعة.. تراب وعفار.. ولكن سأرى.

تقول هند ورنّة السخرية في كلامها: اسمعي.. طلبت الحاجّة أن أدعوك إلى الضيعة.. تظن أن الضيعة والذهاب إليها متعة.. نحن لسنا مقتادين على هذا النوع من النزهات.. صحيح، هناك حوض للسباحة.. ولكن أين هو من مسابح لبنان وشواطئه.. أين بيت الضيعة من الشاليهات في شواطيء جونية.. وتُفاجأ هند عندما ترى تلهفّ جمانة على الذهاب.. لا بأس فأنا أفضل الذهاب.. يكفي الطريق من دمشق للضيعة بالسيّارة، والأغاني تصدح من المذياع.. جميل أن يجلس المرء ويرى الطرقات والمباني والجسور تعبر أمام ناظريه.. وضوء الشمس يزحف فوق

البطاح والسهول.. والظلال تتراقص أمام العين.. وفي أعماق القلب.. ويسرح الفكر خلف الذكريات..

* * *

وجود جمانة كان السلوى والعزاء لهند.. وفي الوقت نفسه كان شفاء لها من هواجسها التي تدور حول شخصيتها وأمورها الحميمة.. فبدأت تهتم بأوضاع العمل.. . فوضع زوجها التجاري مترجرج، والعمل في المحل ليس كما يجب.. متاعب مع تجار الجملة.. وهو ليس ابن سوق كما يقولون.. وكثيراً ما كان يحزنها أن تسمع التلميحات في أول الأمر، ثم المواجهة الصريحة والتعريض المباشر بزوجها.. فهو غير كفء للعمل.. ولا يلتفت للمحل كما يجب.. كثيراً ما نمر أمامه فنراه مغلقاً.. طبعاً لم يتعب في تأسيسه، ولا صرف من جيبه قرشاً.. أخوه تكفل بتمويله.. دفع بدل الإخلاء.. ودفع للديكور وكافّة ما يلزم من خزائن ورفوف أي تأثيثه وإعداده ليكون محلاً عصرياً أنيقاً.. وملأه بالبضاعة الأولية وزوده بالسيولة المالية.. فماذا بقي.. لم يبق إلا همته.. وأين همته.. لا ندري.. وكانت هند نفسها لا تدري ما تفعل.. وحاولت هي نفسها أن لا تدع له حجة

لإغلاق المحل، في وقت تكون فيه كل المحلات مفتوحة.. فرتبت لنفسها برنامج عمل أسبوعياً.. تقوم هي نفسها بفتح المحل والمكوث فيه للبيع بعد ظهر ثلاثة أيام في الأسبوع... بينما يذهب حازم إلى المعامل أو إلى تجار الجملة.. فهو يعتمد على المنتوجات المحلية.. ويخشى المستورد.. ومداهمات موظفي التموين بحثاً عن مخالفات قانونية، وتضييقاً على تجار المستورد.. فغاية طموح حازم أن يرضى من الغنيمة بالإياب.

وظلَّ الوضع كما هو.. ليس هناك تقدم يذكر.. بجهد جهيد استطاع المحل أن يخرج لا له ولا عليه.. أما الربح وأمّا مصروف البيت والولدين ودراستهما.. فكانت حصة حازم في مدرسة أخيه وما تدرّه من ربح معقول تفي بالحاجات الضرورية...

لولا كلام الناس وتدخلهم لما شعر حازم بأي حرج.. فهو دائماً يجد ما يحتاج إليه.. واحتياجاته ليست مستحيلة.. فهو سعيد بزوجته وولديه.. سعيد بتنافس أمّه وزوجته على تدليله وتغنيجه.. وفوق ذلك لديه قطعة أرض ورثها عن أبيه.. وهي وإن كانت غير مستصلحة، ولا مزروعة. بل متروكة ومهملة، وليس لها أي مردود مادي.. ألا أنها بنظره خميرة تقبع بالظل

وتعطيه شعوراً بالأمان من غدر الزمان..

يستطيع حازم إرضاء لزوجته أن يبيع الأرض ويشتري بيتاً خاصاً بهما.. فزوجته لا تفتأ تبدي تذمرها من السكن مع أمّه.. التي تمنع عليها كل فرصة لإظهار حبها لزوجها.. حتى الأمور الصغيرة غير المرهقة التي يمكنها إرضاؤه بواسطتها.. كلمة حب لطيفة.. دعاء صادق.. أكلة شهية يفضلها فتفاجئه بها.. إظهار جزعها إذا ألم به عارض صحي.. كل ذلك تسبقها إليه حماتها.. فتشعر أنها في تنافس مستمر معها.. وهند تكره أن تكون في منافسة مستمرة مع أي كان.. فكيف تتنافس مع امرأة أخرى حول زوجها.. المفروض أنها الأولى في حياته.. لو كانت تسكن وحدها.. على الأقل ترتاح من رؤية ما تفعله حماتها.

صحيح هي أمور صغيرة، ولكن الأفكار كانت تسعى كافاع سوداء في جمجمة هند.. ولّما اشتد الضيق بها خيّرها حازم بين أن يبيع الأرض او يسافر إلى جدّة، فإخوتها هناك قد يساعدونه على إيجاد عمل مناسب.. وافقت هند على فكرة السفر..

وبدأت الإتصالات الهاتفية بين دمشق وجدّة.. فكان الرأي

أن يأتي للتجربة مدة خمس عشرة يوماً.. فهو لم يسبق له أن زار الأراضي المقدسة. فليحصل أول الأمر على تأشيرة دخول لأداء العمرة.. فيقوم بمناسكها.. وفي جدّة يستضيفه سعيد الأخ الأكبر لهند.. ويتولى تعريفه بالبلد وإرشاده إلى الطرق التي يحصل بها على فرصة عمل.

لاحظت هند أن إخوتها رحبّوا بالفكرة فقط تجاوباً مع لهفتها ولهفة زوجها. ولكنهم لم يقتنعوا بفكرة السفر من أساسها.. وحجتهم كما هي حجّة معظم من سمع بعزم حازم على السفر، سواء من أهله أو من أهل زوجته.

نظرات التعجب والإستنكار كانت تواجههم.. السفر.. لماذا السفر.. حازم الذي عنده بيت، ومحل تجاري، وسيارة، وعنده حصة في مدرسة أطفال وفوق ذلك عنده أرض.. شخص هكذا وضعه المادي ويسعى للسفر، فماذا ترك لغيره من عباد الله ..لماذا الغربة والتشرّد وتعب القلب والجسد.. الناس عادة تتغرب لتحقق لنفسها خميرة تستطيع بعدها الإستقرار في بلدها.. ماذا يريد حازم؟ وسيلة الإستقرار الأساسية متوفرة..

السفر حياة أخرى، والتجربة سواء نجحت أو فشلت، فهي

غنى للنفس.. وما دام يستطيع أن يجرب والفرصة متاحة.. فلماذا لا يفعل.

وسافر حازم... أول مرة يسافر إلى بلد أبعد من دمشق وبيروت. وأول مرة يستقل الطائرة، لتقطع به مسافة طويلة.. فقد سبق له أن ركب الطائرة من بيروت إلى دمشق هارباً من القصف مع زوجته وابنه، في وقت كان الطريق البرّي مقطوعاً.. ولم يستمتع بها. فلم تكد الطائرة تصعد في السماء حتى هبطت.. لم يشعر متى صعدت، ومتى هبطت. أما الآن فالوضع مختلف.. طائرة جمبو كبيرة.. ساعتان ونصف مدة السفر. وسيتناول وجبة طعام كاملة في الطائرة...وسيتأمل المضيفات والمضيفين.. يراقب شعوره في كل دقيقة تمر... كان حازم سعيداً جداً بهذه الفرصة السانحة..نعمة هبطت عليه من السماء... يتعرف إلى بلد جديد.. ويقوم بأداء العمرة.. وينزل ضيفاً على أقاربه.. فإن له إبنة أخ أيضاً في جدّة.. سيزورها حتماً، وربما ضاف عندها يومين أو ثلاثة، فليس من المعقول أن يقضي مدة إقامته عند أخي زوجته فقط.. وفي الوقت نفسه يرى إن كان هناك فرصة عمل مناسبة تيسّر له الربح السريع والكبير... وظيفة محترمة في

شركة كبيرة.. عنده خبرة بالمحاسبة. فقد عمل محاسباً عندما كان يؤدي خدمة العلم.. ولكنه لا يحمل شهادة محاسبة... لا بأس سيذلون جهدهم في إيجاد وظيفة له.. فالمحبون كثر، والحمد لله.

يقول حازم لسعيد: والله يا أخي يبدو أن الأمر ليس سهلاً كما كنت أتصور.. لم نترك شركة إلا وزرناها.. الإعلانات تملاء الصحف.. ماذا هل نحن في أوروبا.. لماذا اللغة الأجنبية... حتى الساعي المراسل الذي ينقل الأوراق بين الموظفين يحتاج إلى لغة أجنبية..

ولكن.. يقول سعيد: يا حازم يا حبيبي حتى شهادة مهنية لا تحمل.. لا شهادة بكالوريا ولا شهادة مهنية ولا تعرف لغة أجنبية.. ليس أمامك إلا عاملاً يومياً في أحد المشروعات العمرانية، إما في المجمّعات السكنية أو في شق الطرقات.

– حسناً، سأجرب العمل. خذني غداً إلى مشروع منطقة المعكرون.. فالتجربة أكبر برهان.

ورشات العمل العديدة تتناثر على امتداد النظر.. أبنية قديمة

تفتقد إلى الفن.. تقوم الجرافات بهدمها وجرفها.. عمّال من مختلف الأجناس في الطرقات.. الرمال مرشوشة بالزيت كي لا تزحف على الطرقات.. سيارات مختلفة الأحجام والأشكال لم يسبق لحازم أن رأى مثلها..

نزل من سيارة سعيد المكيّفة.. فلفحته ريح ساخنة.. وهو أبيض أشقر.. عبق وجهه.. وتصب العرق منه.. كاد أن يختنق.. فالرطوبة مرتفعة جداً، والجو لزج.. والحرّ لاهب.. قال له رئيس العمّال: قيل لي إنّك تعرف قيادة السيارات.. سنسلمك خلاطة للرمل تعمل عليها..

مرّ اليوم كأنه مئة سنة.. تذكر محلّة في دمشق.. الهواء العليل وحده يكفي... لن يعيش المرء إلاّ مرّة واحدة... وأيضاً تكاليف المعيشة هنا مرتفعة جداً.. إذا كنت أريد العيش بمستوى كالمستوى الذي أعيشه في بلدي.. أو كما يعيش أخوة هند هنا.. سأنفق كل ما أكسبه.. ولن أوفرّ قرشاً واحد.. الحمد لله .. انتهت مدة الإقامة المسموح بها حسب تأشيرة جواز السفر.. وقد أخذت فكرة وافية عن الفرص المتاحة..

مهما يكن لقد استفدت.. عرفت عالماً جديداً.. ونوعاً

مختلفاً للحياة.. كلّ ميسّر لما خلق له.. هل ستخرب الدنيا إذا لم أتغرب كما تغرّب غيري.. الناس لا تترك أحداً يعيش كما يحلو له.. ما همّهم إن كان يعمل المحل أو لا يعمل.. يتدخلون بكل كبيرة وصغيرة.. يحسدون المرء على راحة باله وشعوره بالدعة والسلام..

لم يصدّق حازم أن موعد العودة قد أزف.. وعندما كان يحزم حقيبته في الصباح لم يكن يصدق أن المساء سيضمه في فراش واحد مع زوجته.. واستيقظ حازم من الكابوس الذي جثم على صدره دهراً.. هكذا خيّل إليه.

* * *

فكر حازم.. أن العالم مليء بالكوابيس.. لا زال كابوس آخر ينتظرني هنا.. كيف سأواجه نظرات السخرية والتأنيب..

وكان أكثر ما يقلقه تأنيب أخيه الأكبر نبيل وتبرّم زوجته ليلى، دائماً يلومانه على تقصيره تجاه المحل، حتى أصبح لا يجتمع بأخيه إلاّ وقال له:

– هل تحسب أن الأموال التي دفعتُها لتأسيس المحلّ هي حسنة لوجه الله.. إنّها دين.. يجب عليك أن تعيده.. ولكن يبدو أن المرء يستهتر بما لم يتعب به..

– يا أخي ماذا أفعل الحال صعبة والشغل واقف، وموظفو التموين لا يرحمون أحداً..

– لا تحتج بموظفي التموين.. موظفو التموين طول عمرهم في البلد.. ولكنك أنت متخوِّف، وقلبك ضعيف واعصابك هشة..

– ماذا تريدني أن أفعل؟

– انظر إلى عديلك عاصم.. نازل طالع إلى بيروت.. سافر أنت أيضاً.. وطعّم بضاعتك بقليل من المستورد.. يا أخي الحركة بركة، تحرّك قليلاً.. عديلك غيّر بيته، واشترى منزلاً جديداً.. وأحواله عال.. وأنت مكانك راوح.

– حسناً سأحاول.

وفعلاً سافر حازم إلى بيروت، وعقد عدة صفقات تجارية. اشترى سراويل جينز.. كولونات صوفية، بيجامات للأطفال..

لوازم محله. واتفق مع عديله عاصم أن يعطيها لأحد السائقين الذين يعملون على خط بيروت–دمشق يسلمها له في الشام... وكان يخزّن البضاعة في البيت في السقيفة فوق الحمّام.. في مكان واحد مع البضاعة المحليَّة.. وقد كان من عادته كلما فرغ المحل أو كثر الطلب على نوع معيّن، يأخذ ما يحتاجه من المخزون في البيت...

وجرت العملة بين يدي حازم..وشعر بتحسن طفيف.. وتمكَّن من تسديد قسم من الدين لأخيه، الذي سامحه بدوره بالباقي.. لأن حازم كان بمثابة ابنه، وكل ما في الأمر هو حثّه على الإعتماد على النفس والشعور بالمسؤوليَّة...

وتمكَّن حازم أخيراً من شراء بيت صغير يتألف من غرفتين للنوم وغرفة للطعام ومطبخ وحمام، مع فسحة سماوية صغيرة، فالبيت في الطابق الأرضي... أعجب هندا جداً.. وفرحت به.. ولكن عائلة حازم استنكرت الفكرة.. يترك بيت أمّه الفسيح الأرجاء، ليسكن بهذا القن.. فالبون شاسع بين هذا البيت وبين بيوت إخوته.. إبن الرشيدي يسكن في بيت كهذا..

أصوات الاستنكار تتعالى في وجه هند.. فتقابلها هند بصمت

مطبق.. وهزة رأس تتصنع البله.. كأنها لا تفهم ما وراء الكلمات.. كانت في دنيا أخرى.. تزهر وتربو في داخلها.. تطوى عليها الضلوع.. ويسكت عنها الكلام.. دنيا منسوجة من خيوط الفرح والسلام.. شعرت وكأنها وقّعت ميثاق صلح مع العالم والناس والكون بأسره.. منذ أن تزوجت لم تشعر بالإستقرار الزوجي ولا بالدعة والسكون، إلا الآن في هذا البيت الذي لم يعجب أحداً.. الآن تشعر أنها ربة بيت حقيقية. استقدمت بعض جهازها المخزون في المستودع، ووزعت منه ما يمكن في البيت.. أصبح بيتها لها.. وزوجها لها.. وولداها لها.. لا أحد يدسّ أنفه في تربيتهما وتوجيههما.. ولا أحد يدخل بينها وبين زوجها..

ولكن ذلك لم يهب هندا الطمأنينة الأبدية.. فهي امرأة تخاف الله كثيراً.. تصلي الفرض والسنَّة، وتصوم رمضان و٢٧ رجب و١٥ شعبان، وتقرأ القرآن.. إلا أنها لا تتحجب، حجاباً شرعياً ولا غير شرعي.. تخاف الله كثيراً، وتحبّه كثيراً وتتوجه إليه بخشوع داخلي، وتدعوه في لحظات التجلّي، وتحسّ أنّه قريب منها جداً يحوطها بعنايته ويدفع عنها الشرور والآثام..

لقد كان الإتفاق بينها وبين زوجها أن تظلّ هي والأولاد في دمشق.. وتقوم هي بأعباء المحل.. لا أن تسافر معه.. لأن الغاية من السفر هي جمع قرشين والعودة.. لا أن تستقر العائلة في البلاد الغريبة، وإذا ذهبت هي والولدان، فسيضطر لإنفاق ما يسحبه، ولن يوفر شيئاً.. عندما يصل تفكير هند إلى هذا الحدّ تحسّ أن رأسها غدا وعاء يحتوي سائلاً لزجاً تسرّب إلى خلايا الدماغ وشلّها عن التفكير.

العمل ليس متعباً.. ولكن بوجود حازم إلى جانبها كان له طعم آخر.. كان رفاهية . أما الآن فهو كدح.. حتى منظرها في المرآة تغيَّر.. لم تعد هنداً التي عرفتها.. تمنّت في سرّها.. وتضرعت إلى ربّها ألا ينجح حازم في إيجاد أي عمل، وألا تعجبه الأوضاع كي يعود إليها.. ويقف إلى جانبها.. ولو بخفي حنين.. وفكرت هند أنها تعرف قصة حنين هذا فقد قرأتها في النوادر التي ترويها مجلة العربي، أو ربَّما المختار.

- ٧ -

أصبح كل ذلك جزءاً من الماضي، بنظر هند.. ولم تصدِّق أن الأمور تطورت وسارت كما تشتهي دون أن تخسر شيئاً.. تقول لنفسها: هل يجوز بعد هذا أن يقال: لماذا قراءة القرآن.. ها قد تمَّ لي ما أريد دون أخذ ورد، ودون أن أعلن رغبتي للملأ.. لا منَّة لأحد عليّ.. كل ذلك بفضل قراءة القرآن والتوجه إلى الله بصدق.. ها قد أصبح لي بيتي الخاص.. والأمور تسير من حسن إلى أحسن.. وبدأ حازم يعتاد على التعامل مع البضاعة المستوردة. ولكن دون أن يجشم نفسه عناء السفر المتواصل. فإن هناك من يزوّده بالبضاعة إلى البيت مباشرة..

إنّه في وضع يحسد عليه.. تفكر هند.. الحمد لله أنه لا يضطر للسفر إلى بيروت مثل عاصم.. الله يعين جمانة فهي قلقة دائماً،

على زوجها. لا يكفي العلقة مع الجمارك والسائقين، وإنما خطر الطريق والقصف والمتفجرات.. كادح والله عاصم هذا.. يروح ويجيء وروحه على كفّه.. تفكر هند، ترى هل عاد من بيروت بعد ما سافر مع أهلي، أول أمس.. ترفع هند سمّاعة الهاتف، لتكلم جمانة وتطمئن عليها وعلى زوجها، ولترى إن كان أهلها قد وصلوا بالسلامة:

– آلو جمانة، كيف الحال، هل عاد عاصم؟

– لا لم يعد.. ولكن جاء رجلان من الجمارك وسألا عنه..

– من الجمارك؟ خير إن شاء الله.. ماذا يريدان؟

– والله لا أعرف.. يمكن مثل المرة السابقة.. حين وجدوا ثريّا ماركة ماري تيريز عنده في المحل.. وهذا النوع من الثريّات، ممنوع إستيراده. ولكنه أجرى مصالحة عليها، ودفع الرسوم المفروضة.. وأخذ إيصالاً رسمياً.. وأصبحت قانونية.. بعد ذلك باعها بشكل عادي.

– خير إن شاء الله على كل حال عندما يرجع عاصم، وتعرفين السبب.. أخبريني. كيف الأولاد؟

– عال، وأنت كيف حالك.. صحيح مثل ما ودعّت تلاقي.

أجابت هند: تلاقي الخير.. والله نزلت قبل الظهر إلى المحل، وكنت مكتئبة قليلاً، ربما لسفر الأهل.. ولا حظ حازم أنني كذلك.. أتعرفين ماذا قال لي..

– ماذا؟

– قال لي: أنا أمك وأبوك وأختك سحر.. ولكنني لن أكون أختك جمانة أبداً.. فهي تقوم بدور حماي وحماتي.. كي لا أزعل أنه ليس لي بيت عم مقيمين هنا دائماً..

– عظيم باله فاضٍ، وعيشه راضٍ هنيئاً له..

تمرّ دقيقة صمت، تقول جمانة بعدها: أسمع الباب الخارجي قد فتح.. يبدو أن عاصماً قد عاد.. مع السلامة الآن، سأكلمّك في وقت آخر..

وفي اليوم التالي تستيقظ هند كعادتها في الصباح الباكر قبل طلوع الشمس فتغتسل وتتوضأ، وتصلي الصبح قبل أن يحين موعد ذهاب ولديها إلى المدرسة.. تنتقل في البيت بهدوء.. تدخل المطبخ، تضع إبريق الشاي على النار.. تعد القهوة

لزوجها... تغسل صحون الفاكهة التي تناولتها مع زوجها مساء البارحة. فزوجها يتعشى حبّتين من الفاكهة المتيسرة حسب الموسم.. توقظ الولدين وتدعوهما لتحضير نفسيهما للمدرسة.. لقد نقلتهما من مدرسة الأطفال التي يملكها سلفها وزوجها، منذ عامين. عندما أصبح إبنها الأصغر في سن المدرسة نريدهما أن يكونا في مدرسة واحدة فبينهما ثلاث سنوات فرق في العمر، ومدرسة سلفها ليس فيها إلا صفوف الروضة.

قبل أن يذهب زوجها والولدان، تسأله: هل تريدني أن أنزل إلى المحل اليوم بعد الظهر..؟

– لماذا؟ هل عندك خطط عمل أخرى؟

– أفكر بالذهاب إلى جمانة، فإني لم أرها منذ سافر أهلي.. وفي الوقت نفسه أطمئن عليهم وعلى وصولهم..

– كما تريدين.. على كل حال اليوم الخميس. وأريد أن أحاسب تجّار الجملة. تعرفين العادة هكذا، الحسابات دائماً تكون يوم الخميس..

– النتيجة، ماذا تقصد؟ هل تريدني أن أنزل إلى المحل أم

أذهب إلى جمانة.. وبالمناسبة، قالت جمانة إن رجلين من الجمارك سألا عن عاصم.. هل سمعت بشيء عن هذا الأمر؟

ردّ حازم: الآن أسمع منك.. خير. في الواقع هذه الأيام، الأحوال العامة بالنسبة للتجار.. لا أقصد كبار التجار.. بل تجار الدخل المحدود، ليست كما يجب.. هناك تشديد على البضائع.. كل يوم نسمع بإجراءات جديدة..

توقف حازم عن الكلام ثم إستدرك: يجب أن أذهب ألآن سيتأخر الأولاد..

– لم تجبني.. هل أنزل إلى المحل؟

– فهمك كافٍ.. قلت لك إنني سأحاسب التجار.. يعني سأبقى أنا في المحل بعد الظهر وفي المساء، وقد أتأخر ساعة عن موعد الإقفال.. فلا داعي لنزولك..

بعد الظهر اصطحبت هند ولديها وذهبت إلى بيت جمانة في منطقة الزاهرة.. فكرت هند.. لقد أصبحت المسافة بين بيتي وبيتها بعيدة.. من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب.. عندما كانت تسكن في شارع الكرامة بأبي رمانة.. وأنا في المهاجرين، كنا

نرى إحدانا الأخرى أكثر مما نفعل الآن.. لابأس إننا نعرف أخبار بعضنا بعضاً بواسطة الهاتف.. الحمد لله أن عند كل منّا هاتفاً.. ليس هناك شيء بلا ثمن.. والإنسان لا يحصل على كل ما يريد في وقت واحد، وعليه أن يكيّف نفسه حسب الإمكانات المتاحة.. يميّز ثم يضع سلّماً بالأولويات بعد ذلك يختار.. هكذا يستطيع أن يجتاز حقول الألغام التي تعترض سبيله.. هكذا يكون العالم مرناً.. واسعاً وجميلاً.. هكذا يستطيع المنزوي في صدفته الموحشة، والمتحصّن خلف متاريس الخوف والقلق أن يمتطي الريح ويتلبس السحاب.. ويمتد كإبتسامة أليفة، تختفي معها كل تشوهات العالم..

وتلتفت هند يميناً ويساراً، وتضم ولديها الجالسين معها في المقعد الخلفي لسيارة الأجرة.. بينما جلس راكبان غريبان إلى جانب السائق.. تنزل في وسط المدينة لتأخذ سيارة أخرى تنقلها إلى بيت جمانة.

* * *

مكثت هند طول بعد الظهر عند جمانة، وعرفت منها أن عاصماً ذهب إلى مبنى الجمارك، ولكنه لم يعد.. وشعرت ببعض

الإطمئنان نحو جمانة.. إذ لا يبدو عليها القلق ولا الإضطراب.. تحدثتا عن أفضل طريقة لتدريس الأولاد.. وكم من الوقت يحتاج كل ولد لينهي واجباته البيتية.. ومن ثم وضعت جمانة شريط فيديو لغراندايزر وتوم أند جيري.. كي يلهو الأولاد به.. وبذلك تستطيعان أن تثرثرا بهدوء بينما تُعدان البطاطا المقلية في المطبخ.. فالأولاد يعتبرون البطاطا أكلتهم المفضلة.. وفي أثناء عملية قلي البطاطا تحدثتا قليلاً عن مشروعات محتملة للمستقبل عند جمانة.. فهي تفكر جدياً بملاحقة مسألة العمل.. ولكن مدير مكتب الوزير الذي قدّم لها الطلب قد انتقل عمله إلى لندن.. ستجد طريقة لملاحقة هذه المسألة.. قالت جمانة لهند.. سأطلب موعداً مع الوزير نفسه.. سأطلب من السيد نبيل أن يدبّر لي الموعد، ويذكر له أنني جمانة إبنة عزت جواد.. فذلك سيجعل الفرصة بتحديد الموعد أقرب وأسهل.. هُناك صحبة بين الوالد والوزير، وكلما يأتي الوالد إلى دمشق يلتقيه الوزير أكثر من مرة..

فرحت هند بأخبار جمانة، وطريقة حديثها معها.. وأصبح لديها مادة جديدة وطازجة لتدير حولها رحى التفكير.. وعندما

غادرت هند بيت أختها عائدة إلى بيتها لم تنس أن تؤكد لها أنها ستتّصل بها لتعلم ماذا تم معها بهذا الشأن.. ولم تنس أيضاً أن تطلب منها تبليغ سلامها إلى عاصم. وأنها كانت تتمنى لو إجتمعت به لكي تطمئن منه شخصياً عن وصول الأهل إلى بيروت.. وعن أحوال بيروت بعد الإجتياح..

قالت جمانة: إطمئني.. كل شيء على ما يرام.. ولا ينقصهم سوى مشاهدتك..

ترّد هند: أتسخرين من العبارات التقليدية التي تكتب في الرسائل... سنرى غداً أسلوبك في الكتابة يا صحفية المستقبل..

* * *

بينما كانت هند تحاول الخروج من سيارة الأجرة أمام البيت، رأت سيارة زوجها قد توقفت، وترجّل منها حازم. فإبتسمت وقالت في سرها: ها قد وصلنا سوياً، لم يسبقني ليجد البيت خالياً...

سارع حازم إلى السيارة الثانية وساعد زوجته. فقد كان الصغير نائماً، ومع أنها حاولت إيقاظه قبل الوصول إلا أن آثار

النوم لا زالت متسربة في جسده. حمله حازم، ودخلوا جميعهم إلى البيت.. سأل حازم: كيف جمانة.

أجابت هند: عال.. لا شيء غير عادي.. سألتها عن عاصم، قالت إنّه ذهب إلى مبنى الجمارك، ولكنها لا تعرف ماذا تمّ معه..

– أنا أعرف..

– ماذا تعرف؟ هل حصل شيء.

– ضعي الولدين في سريريهما.. وبعد ذلك نتكلم.

– خير شغلت بالي ماذا حصل؟

– أسرعي..

أسرعت هند والرجفة تسري في أوصالها.. ولم تدر كيف ألبستهما ملابس النوم.. وأحكمت الغطاء حولهما.. فالجو بارد ولسعة البرد لا ترحم الأطفال في هذا الوقت من السنة.

عادت مسرعة: نعم ما هي الأخبار؟

– سيئة جداً.. لقد كسروا ثلاثة مستودعات وأحضروا محتوياتها إلى مبنى الجمارك.. وقد اعترف عاصم أنها كلها

– لا لم أر أحداً.. فإننا ذهبنا ورجعنا بشكل عادي. والحقيقة سررنا جداً بهذه الزيارة أنا والأولاد وهي والأولاد أيضاً.

ساد الصمت برهة من الوقت ثم استأنفت هند الكلام: غريب، مع أنها عادة تكون حساسة، وحدسها يصدق، وتشعر مسبقاً بما قد يحدث.. ولكن يبدو أن المصيبة عندما تكون جدية وقريبة الوقوع، فان الله تعالى يطمئن قلب المصاب.. فقد كانت منشرحة، حتى أنها قالت: إن الأمر لا يستحق القلق.. فقد حدث معه شيء مماثل من قبل وانتهت القضية بسرعة في نفس اليوم.

قال حازم: يبدو أن هذه المرة مختلفة. على ما أظن كان مراقباً منذ مدة.. حتى أنهم يعرفون كل المستودعات.. أو ربما في الأمر مكيدة، وأن هناك من تعمّد الوشاية به، ربّما يكون صبيّه الأهبل، الذي يعمل عنده.. فقد سمعته مرة، على هبله الظاهر، يقول: أعرف أشياء عنه – يقصد عاصماً – تقضي عليه.

– هذا الأهبل.. من كان يظن؟

– أقول ربّما.. لست متأكداً.. ولكن المؤكد أن هناك وشاية،

بالإضافة إلى أنه كان مراقباً بشدة حتى وقع.

وتابع حازم كلامه: ثلاثة مستودعات، والله .صهرك عقر داهية.. ثلاثة مستودعات!!

– سأتصل بجمانة لأطمئن عليها.. ثم كمن تذكر شيئ قالت: كيف تفكر أنت.. ألم يهمّك إلا المستودعات!

ترفع هند السمّاعة، وتحاول جاهدة الإتصال بجمانة، ولكن الخطوط لا تسعفها.. وتحاول مرة وإثنتين ولا فائدة.. فتقول: والله لن أستطيع النوم.. ما العمل.. نخشى أن نترك الأولاد ربما إستيقظوا في أثناء غيابنا إذا ذهبنا إليها الآن.

– غداً نعرف ماذا تمّ معها.. قلت لك إن خلدون ذهب إليها، وربما ذهبت خالتك أيضاً.. لن يتركوها وحدها في هذه الليلة.. على أية حال، دعينا ننم الآن وغداً يخلق الله ما لا تعلمون..

في اليوم التالي استيقظت هند باكراً أكثر من عادتها.. في الواقع كان نومها متقطعاً، ولم تستغرق في النوم جيداً.. لذلك ما كادت أولى خيوط الفجر تبزغ حتى نهضت من فراشها..

وأسرعت إلى الوضوء والصلاة كعادتها..

وربما الآن شعرت بالحاجة إلى الصلاة أكثر من أي وقت.. وربما فكرت أن تقرأ سورة البقرة ثلاث مرات متواصلة كعادتها في الملمّات، وعندما تتوجه إلى الله تعالى في حاجة مستعصية.. وقد فعلت ذلك مرة بنيّة صادقة وقلب سليم، عندما تزوج سلفها الأستاذ، وهو أخو حازم الذي يكبره مباشرة، تزوج مرة ثانيةعلى سلفتها نجاة... وهي أقرب الناس إلى قلبها من عائلة زوجها، فكلاهما تزوجتا في وقت متقارب، ونشأ بينهما شيء يشبه الصداقة قبل مجيء جمانة إلى دمشق.. وعندما فعل زوجها فعلته.. ولم يكتف بذلك بل طلقها، لأن الثانية إشترطت عليه طلاق الأولى في ذلك الحين قرأت هند لهما سورة البقرة ثلاث مرات متالية ومتواصلة راجية من الله أن يطلق الزوجة الثانية ويرد نجاة صديقتها إلى عصمته. وقد تمّ لها ما تمنته وسعت إليه بصمت.

ويبدو أن هنداً مقتنعة جداً بهذه الوسيلة.. لذلك فكرت فعلاً أن تقرأها هذه المرة من أجل عاصم وجمانة... ولكن، ليس الآن. فهي تريد أولا أن تعرف أخبار جمانة وتطمئن عليها،

وترى إن كان الأمر يستحق هذا العناء..

أسرعت في ترتيب ما يمكن ترتيبه من شؤون البيت إستعداد للذهاب مع زوجها والأولاد.. فهو سيوصل الأولاد إلى المدرسة، ومن هناك إلى المحل مباشرة لفتحه والإطمئنان عليه، وتوصية الأجير الذي يعمل فيه.. ومن ثم يذهب ليرى ما تمّ بشأن عاصم.. فيوصلها هي أولاً إلى بيت جمانة، ويذهب هو إلى مبنى الجمارك..

أعدت هند القهوة لزوجها، ووضعت صحون الزيتون والجبنة والمكدوس والمربّى على الطاولة.. ووضعت عدة بيضات على النار لتسلقها.. وذهبت لإيقاظ زوجها والأولاد..

-فبادرها قائلاً: ما بك، لماذا توقظيني هكذا باكراً!؟

- إنهض، علينا الكثير من الأعمال اليوم.. سأذهب معك.. فنوصل الأولاد إلى المدرسة، ونذهب إلى المحل.. و..

- كفى.. لا تكملي.. اليوم الجمعة.

- ماذا؟ يبدو أنني مضروبة على رأسي.. لقد حضّرت كل شيء بسرعة، لأنني أريد الذهاب إلى جمانة..

قال حازم، وفي صوته آثار النوم: أرى أن تحاولي الإتصال بها هاتفياً قبل أي شيء.. وأنا بعد أن أشرب قهوتي، وأتناول إفطاري، سأذهب لأرى ما تمّ بشأن عاصم.. سأذهب إلى مبنى الجمارك.. لا سأذهب إلى خلدون أولاً ومن ثم نذهب سوياً..

ويتابع حازم كمن يحدث نفسه: على كل حال، ما دام قد بات في الحجز الليلة الماضية، فلا أمل اليوم في خروجه، حتى ولو ثبت أنه لا مخالفة عليه. فلن يكون هناك أي إجراء رسمي حتى صباح السبت..

ترد هند وهل يترك الأمر هكذا حتى صباح السبت.. يجب أن تقوموا بعمل شيء أنت وخلدون.. وتروا من له علاقة من أصدقاء عاصم، فكثير منهم على ما أعلم يموّلون صفقاته فالبضاعة المحجوزة ليست فقط تخص عاصماً.. أكيد هناك كثير من المتضرّرين، ويشعرون أن أموالهم ذهبت أدراج الرياح..

ولكن لا تنسي، يقول حازم، إن الناس في هذه الحالات حتماً تفضل أن تبقى بعيدة عن المسؤولية، ولو فقدت بعض المال.. فلا تنتظري أن يهرع هؤلاء الممولون إلى التدخل لصالح عاصم.. ففي الأمر بعض الخطر عليهم.

– هكذا يتركونه يتصدى للمسؤولية وحده.. ألا يعرفونه إلا عند تقاسم الأرباح..

– هذه مسؤوليته، وهو يعرف ماله وما عليه.. وهم تركوا أموالهم بين يديه وتحت تصرفه.. لم يتدخلوا بسير العمل أو إدارته.. وإنما ظلّوا بعيدين. على كل حال لا تخشي شيئاً، فما زالت بذرة الخير تعمر النفوس، وكل من يستطيع المساعدة لا بد أن يقوم بما عليه.

– الله يسمع منك.. ولكني أراك واثقاً جداً بالآخرين.. أرجو أن لا يخيب ظنّك. على كل حال، الآن ولو يوم جمعة، وعطلة رسمية، فيمكنك رؤية ابن عمي المحامي، وهو يرشدكم إلى ما يجب فعله كخطوة أوليّة.. ويوم الجمعة بما أنّه يوم العطلة الأسبوعية، فيمكنكم أنتم أصحاب الأعمال والمسؤوليات أن تتفرغوا قليلاً للمساعدة دون أن تتعطل أعمالكم.. هذا بالنسبة لك أنت،وكذلك الأمر بالنسبة لخلدون.

– يا عزيزتي، هذه حالة استثنائية. وهل تظنين أنني أنا أو خلدون سنخشى على أعمالنا أن تتعطل. فعاصم يخصّنا. ومسؤوليتنا تجاهه لا حاجة بنا لمن يذكّرنا بها..

أخيراً استطاعت هند الإتصال بجمانة.. وعرفت منها أن خالتها باتت عندها الليلة الماضية.. فلا داعي للقلق عليها، كما أخبرتها أن لا داعي لكي تأتي لزيارتها اليوم بصورة خاصة. لأن اليوم عطلة، وإذا اجتمع أولاد الإثنتين، سيكثر الصخب والضجيج.. والأعصاب متلفة.. ولسنا في وضع نستطيع معه تحمّل دلع الأولاد وغنجهم وتنفيذ طلباتهم التي لا تنتهي. لذلك الأفضل أن تبقى كل منّا في بيتها مع أولادها..

* * *

لم يكن اليوم التالي يوماً عادياً في حياة هند.. شعرت بأن جموداً أبدياً يحاول العبث بأحلامها.. تمنّت لو أن جمانة سمحت لها بالوقوف إلى جانبها في أول تلك اللحظات الحرجة.. ولكنها جمانة هي جمانة التي لا تتغير.. تكره المفاجئات.. وتحب الخطوات المدروسة والمحسوبة والمعروفة النتائج.. وهي تطبق ذلك من أكبر قضية تواجهها في الحياة إلى أصغر مسألة يومية.. لذلك سرعان ما تجاوزت هند حساسيتها تلك.. خاصة عندما عاد حازم متأخراً ذلك اليوم على غير عادته. وكان بادي القلق والهم. وأسرع إلى أماكن البضاعة المستوردة المخزونة في السقيفة

وفي غرفة النوم على ظهر الخزانة، وعبّاها في أكياس القمامة السوداء المصنوعة من النايلون.. وانتظر حتى منتصف الليل،وخرج إلى الشارع ووزّعها على عدّة براميل منتشرة في الشارع لجمع القمامة. يبدأ الناس عادة بتعبئتها حسب تعليمات البلدية ما بين العاشرة ليلاً والسابعة صباحاً.. وبات حازم ليلته تلك مضطرب الحواس.. ولم تكد الساعة تدق السابعة والنصف صباحاً حتى خرج ليطمئن، ويقطع الشك باليقين بأن كل البراميل قد أفرغت من محتوياتها، بما فيها تلك الأكياس السوداء.

علم حازم أن موظفي الجمارك ذهبوا برفقة عاصم إلى منزله، وفتشوه تفتيشاً دقيقاً، وفتشوا البناية كلها. كما فتشوا منزل شقيقته الكبرى ناديا لأن ابنها يعمل عنده ويساعده من وقت لآخر. كما فتشوا منزل شقيقه خلدون ومنزل صديقه عبد الرحمن.. فخشي حازم أن يأتي دور عديله.. ومع علمه الأكيد بأن ما في بيته من البضاعة عبارة عن ألبسة أطفال، وليس فيها أي نوع من الكريستال أو الثريّات أو ما يمتّ إلى نوع بضاعة عاصم بصلة.. إلا أن حازماً لديه بضاعة مستوردة، فخشي أن يضيع بين سين وجيم، ويوقظ الفتنة النائمة، وهو بغنى عن كل ذلك...

وآثر أن يعود من الغنيمة بالإياب.. ولو خسر بعض الأموال.. فالمال فداء للأرواح.. وذلّ الفلوس ولا ذلّ النفوس.. لأن ليس من عادته التفريط بالمال، فهو لا يصرف قرشه إلا في مكانه الضروري والذي لا مندوحة له عنه.

بعد أن اطمأن حازم إلى تفريغ براميل القمامة المتناثرة في الشارع أمام بيته، عاودت نفسه سكينتها بعض الشيء، وأصبح بإمكانه أن يحدّث زوجته بتفصيل ما حدث معه.

ذهب إلى بيت خلدون، فلم يجده، كان قد سبقه إلى مبنى الجمارك، حيث كان عاصم محتجزاً.. فوجد خلدون خارج المبنى، ورأى سيارة الجمارك وقد ركب فيها الموظفون ومعهم عاصم.. وعلم من خلدون أنهم ذاهبون لتفتيش بيت عاصم بمرافقته. فتبعهم هو وخلدون كل بسيارته..

قالت هند: وجمانة، كيف هي، وكيف تلقّت ما حدث.. قال حازم: خمّني كيف ستتصرف جمانة..

– ومن أين لي أن أعرف! هل كنت معكم؟

– طلبت من المسؤول أن يريها إذن التفتيش.. لأن هذا بيت

وليس محلاً تجارياً أو مكان عمل.. وكان عاصم يصفرّ ويخضر، ويتغيّر لونه.

– وهل أراها الإذن بالتفتيش؟

– لا.. فقد ضحك الموظف.. وأنا وخلدون كنا نلملم الضحكة.. وقال لها عاصم دعيهم يفتشوا..

– وهل وجدوا شيئاً من الكريستال في البيت؟

– لا.. لم يجدوا شيئاً.. وكذلك لم يجدوا شيئاً في بيت أبي محمد جارهما. وبعد أن رحلوا جميعاً.. طلب خلدون من جمانة أن تأتي هي والأولاد معه، فيقضوا بضعة أيّام في ضيافته، ريثما ينجلي الموقف، ونعرف ما قد يتم بالقضية.

– وهل ذهبت معه؟

– وافقت على الذهاب.. ولكنها أمهلته إلى المساء كي تحضّر حاجيات الأطفال وترتب البيت بشكل تستطيع فيه الغياب عنه وهي مطمئنة.

– إذن المفروض الآن أنها في بيت خلدون.. ومنذ الليلة الماضية..

سكتت هند قليلاً.. ثم تابعت قائلة: أليس من الأفضل أن تأتي لعندي، بما أنها تركت بيتها.. أنا أختها وأفهمها أكثر من أي إنسان آخر.. والإنسان في ظروف كهذه تضيق نفسه، وتتغيّر أخلاقه.. ويجب أن يكون أصدقاؤه ومحبّوه إلى جانبه.. أليس من الأفضل أن أدعوها لضيافتي؟

أجاب حازم: كما تريدين.

- ٨ -

باتت جمانة الليلة الماضية في بيت سلفها خلدون.. كانت تلك أول مرة تبيت خارج بيتها.. شعرت أنها ذاكرة مرتجفة تحاول أن تجمع أشلاءها من زوايا الأيام والليالي.. منذ تزوجت قبل ست سنوات بعد أن تخرجت من الجامعة، هذه أول ليلة تبيت خارج بيتها.. شعرت كأن الحرب والخوف والرعب قد انتقلت جميعها إلى دمشق.. شعرت أن الأمان يتسرب من مسامات جلدها.. وأن السكينة تهجر روحها.. عاد دوي الإنفجارات وأزيز الرصاص الخطاط يصمّ أذنيها.. إنها حرب من نوع آخر.. ولكنها حرب.. وعليها أن تستعد، وأن تتسلح بما يلزم لها..

المحل التجاري مغلق، وهي لا عمل لها.. وخلدون شقيق زوجها الأكبر.. لن يقصّر في حقّها وحق ولديها، فهما ابنا أخيه

الأصغر. إلا أن لديه عائلته.. زوجة وأربعة أولاد وأمه التي تسكن معه بصورة شبه دائمة.

لم يكن ما حصل مع عاصم مفاجأة لها.. شيء مبهم كان يعشش في أعماقها.. في لا وعيها.. همّ مؤجل.. ولكنه آت لا ريب.. كانت تحس دائماً به..كالمارد المخبأ في قمقم شفاف.. تراه صغيراً داخل القمقم.. وتمنّي النفس أن يختنق قبل أن يكبر.. قبل أن يخرج ويغطي الأفق، ويسد عليها المنافذ..

عندما كانت صغيرة، كانت تخترع قصص البطولة وتجترح الأعاجيب.. كانت تنافس أخاها عاطفاً في «تكلّمه» .. تغوص إلى أعماق البحار.. وتجتاز الأنفاق إلى المدن المسحورة تحت الأرض، وتنافس الجنيات، وتخطف أجمل أمراء الممالك وتسحرهم وتحيلهم بلابل يغردون على نافذة غرفتها في قصر أبيها ملك الجزيرة تحت البحر.. صارت بيروت هي مدينتها المسحورة، ولكنها ليست تحت البحر بل على شاطىء البحر.. دخلت جمانة بيروت صبية يافعة في أول تفتحها للحياة.. كانت في أول المرحلة الإعدادية.. المدارس في بيروت مختلطة، والدراسة فيها باللغة الأجنبية.. مدارس تدرّس موادها بالفرنسية،

ومدارس تدرسها باللغة الانكليزية.. كانت جمانة تفضل اللغة الإنكليزية، وتلقت مبادئها عندما كانت في دمشق.. وكذلك إخوتها الذكور الثلاثة سعيد وعاطف وحسام.. أصبح الثلاثة رفاقها في سني دراستها وفي نفس المدرسة كما كانوا رفاق طفولتها اللاهية.. أمّا هند وهالة وأحمد ومحسن كانوا من نصيب مدرسة أخرى تدرّس موادها باللغة الفرنسية.. وسحر أختها الكبرى كانت في جامعة دمشق، وتابعت دراستها في البيت، وفي موعد الإمتحانات تذهب إلى دمشق تؤديها وتقفل عائدة إلى بيروت. أما مهى فقد حصلت على البكالوريا السورية، وبعد ذلك دخلت الجامعة الأميركية في بيروت.

هكذا استقر وضع الأولاد الدراسي.. هذا الهمّ الذي أرّق عزت جواد منذ أزمع الاستقرار في بيروت.. وفي أول يوم جاءت باصات المدارس ونقلت أولاده كلاً إلى المدرسة التي تيسرت له.. كان يوماً لا ينسى في نفسه ونفس زوجته، التي لم تتمالك نفسها من البكاء وهي تردد فيما يشبه حديث النفس: الحمد لله يا عزت.. إن شاء الله دائماً رأسك مرفوع..

تتذكر جمانة جيداً تلك الأيام، وكان والدها يستيقظ معهم

باكراً لأن أوتوكار المدرسة، هكذا يسمونه في بيروت، كان يأتي باكراً حوالي الخامسة صباحاً، فمدرستهم كانت تقع في منطقة الحدث.. وكان الأتوكار مضطراً حسب خط سيره، أن يأخذهم أول تلاميذ، وبعد ذلك يقوم بجولته على بقية التلاميذ.. وكانت جمانة تستشعر الشفقة في عيني أبيها.. الشفقة لاضطرارهم إلى الخروج في هذا الوقت المبكر ومغادرة الدفء في أسرّتهم.. كان يتأكد أن كلهم أكلوا. كان يحضر لهم الحليب ويقوم بلف عرائس الزبدة والمربى واعطائها لهم قائلاً، حين يداهمهم الوقت ويسمعون صوت البوق يعلو في الشارع: كلوها في الأتوكار..

المشكلة بالنسبة لجمانة في سنوات الدراسة تلك كانت اللغة الأجنبية.. فكل المواد تدرس بالإنكليزية: العلوم الطبيعية، والرياضيات. فقط مادة اللغة العربية والعلوم الإجتماعية تدرس بالعربية.. كانت تميل إلى العلوم الرياضية وتشعر أن باستطاعتها النجاح فيها وخوض غمارها.. تطلب من الأستاذ بعد انتهاء الدرس أن يساعدها فقط على كتابة معاني الكلمات على صفحات الكتاب، كل كلمة معناها بالعربية فوقها.. فيفعل ذلك مرغماً، ونظراته تعكس أن لا فائدة من ذلك.. وينتهرها: هل ستترجمين

كل الكلمات.. هذا مستحيل، ومتى ستحفظينها.. هل ستحفظين الكلمات أم القوانين الرياضية أم ستحلّين المسائل..

فتجيبه بتصميم: لو كانت الرياضيات جبلاً سأزيحه من دربي، ما همّك أنت.. ساعدني فقط بالطريقة التي أحددها لك..

ولم يمض وقت طويل حين استطاعت جمانة تجاوز عقبة اللغة.. وانتقلت إلى مرحلة دقائق مادة الرياضيات. وأصبح الأستاذ يتعاطف معها ومع جهودها بعدما رأى من اصرارها.. قال لها ذات يوم: إنك بحاجة فقط إلى بضعة دروس خصوصية لمادة الرياضيات، قد لا تتجاوز العشرة.. وبعدها أضمن لك اجتياز الامتحانات بنجاح إذا لم يكن بتفوق.. ترد عليه جمانة بعصبية: دروس خصوصية.. لم أفكر قط بهذا الموضوع. ألا يمكن أن أتجاوز الصعوبة بدون الدروس..

- يا ابنتي هذا يسهل الأمر عليك وعليّ.. أخبري أهلك..

تقول له: أهلي، هل تظن أن أهلي، ليس لديهم غيري. عندهم عشرة أولاد.. هذه مسألة لن تنتهي، إذا كل ولد يريد دروساً خصوصية.. يلزمهم على هذه النفقة وكيل..

يرد عليها الأستاذ: هكذا أنتم الأولاد، دائماً تسيئون الظن بأهلكم.. قلت لك اطلبي منهم ذلك وستنالين موافقتهم دون مناقشة ولا أخذ ورد..

وفعلاً كان ذلك لم تحتج جمانة إلا إلى اخبار والدها بشكل عادي فوافق فوراً دون أية مناقشة..

تجاوزت جمانة كل الصعوبات المبدئية بالدراسة، وأصبحت تستمتع بالدراسة وكان اخوتها ووالداها يلاحظون متعتها هذه.. وخاصة الأخ الأكبر سعيد.. يفتح عليها باب الغرفة بهدوء.. ويمد رأسه من فرجة الباب، ويقول مبتسماً في محاولة لإغاظتها:

- ماذا.. هل تعيّن العلم.. يكفيك قراءة..من أجل عينيك الجميلتين.. والله أنا خائف عليك..

شيئان في تلك السنوات كانا محور حياة جمانة: الدراسة والطعام.. كانت لا تستطيع تحمّل الجوع..

عند عودتها من المدرسة يسعدها أكثر ما يسعدها أن تهرع إلى المطبخ، وتتفحص القدور المرفوعة على النار.. ترفع أغطيتها لتطمئن على نوع الطعام.. وتحب منظر أمها وأبهتها الملكية،

وشعرها المرفوع إلى أعلى كتاج مذهب فوق رأسها.. كانت الأم لا تباشر أي عمل من أعمال البيت، إلا بعد استكمال زينتها وأناقتها.. هي امرأة مختلفة عن سائر النساء.. وهكذا هي بعيني جمانة.. ليس فقط لأنها أمها.. بل تعتقد فعلاً أنها مختلفة شكلاً وموضوعاً عن كل الأمهات.. وعن كل النساء.. كانت جمانة تحب تعلق أمها بأبيها.. تحب حرصها عليه واعتناءها به.. وترديدها لكلامه، وكأنه كلام منزل لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. لم تكن جمانة تراهما إلا شخصاً واحداً وروحاً واحدة.. نفس الكلام.. نفس النظرة لأمور الحياة.. تشعر جمانة أن الزوجين يجب أن يكونا على هذه الصورة، وإلا كيف سيمكنهما أن يجولا بعشرة أولاد.. وتحلم أن تكون العلاقة بينها وبين زوجها في المستقبل هكذا بهذا الترابط.. المهم الترابط وليس التفاصيل.. لأنها تؤمن بتمايز النفوس..

كان الزواج بالنسبة لجمانة، أحد مشروعات المستقبل.. ليس مشروعاً معجلاً ولا مشروعاً لاغياً كما هو في حياة أختها الكبرى سحر.. ولكنه مشروع مؤجل.. المهم أن تعيش حياتها الحاضرة.. تفضل أن تعيش كل وقت كما تقتضيه الظروف..

كان لها أصدقاء من الجنسين.. وليس عندها أي تحرّج من صداقة الجنس الآخر.. في مرحلة الأعدادية كان لها صديق خاص أثير.. وفي المرحلة الثانوية كان لها صديق آخر.. مميز.. ولما كان صف الرياضيات من الصفوف الصعبة كان إقبال الفتيات عليه ضئيلاً.. وصادف أنها كانت البنت الوحيدة في صف من عشرة تلاميذ.. كان واحد منهم يعتبر الأول في الصف وهي الثانية.. اسمه عمر.. أصبح صديقها الأثير من بين العشرة.. كان مجتهداً جداً وذكياً.. يحب اللغة العربية، وهو المبرز فيها.. إلى جانب المواد الأخرى.. يحب الشعر ويقلد جبران في الكتابة، ويقلد سعيد عقل بالالقاء.. يكتب تمثيليات ويخرجها، ويدرب رفاقه على تمثيلها في المناسبات العامة التي تحتفل فيها المدرسة: عيد المعلم وعيد الأم، وعيد الاستقلال..

وقد فاجأ جمانة مرة بزيارتها في البيت.. وكان يومها عيد الأم.. وكانت جمانة واخوتها يحتفلون بالمناسبة.. يعدون برنامجاً خاصاً.. كل واحد من اخوتها وأخواتها يحضر كلمة لإلقائها.. ويجمعون من مصروفهم الأسبوعي نسبة مئوية.. تتولى أختها الكبرى سحر اعداد الحسابات وإبلاغ كل منهم ما يترتب عليه

دفعه.. لم يكن مصروفهم الأسبوعي متساوياً.. بل يتزايد طرداً حسب السن.. لقد تربّوا على أن المفاضلة بينهم تخضع فقط للعمر.. الأكبر يمتاز على من يصغره قليلاً.. والاحترام واجب.. فكان أحدهم أو إحداهن لا يستطيع أن يتطاول على أخيه أو أخته الأكبر سناً.. هذا أمر كان مبتوتاً به ولا يسمح بمناقشته.. وقد تقبل جميع الأولاد هذا القانون العائلي، وكانوا ينفذونه دون مناقشة.. وهكذا الأمر بالنسبة لتفاوت المصروف..

لذلك فالنسبة المئوية احسن طريقة لتجميع نفقات المشروعات. فكان يصار إلى الإعداد لشراء هديتين واحدة للأم وواحدة للأب، قبل أشهر من حلول الموعد.. كي لا يشعر أحدهم بالارهاق المادي.. وفي يوم الأحتفال، يكون الجميع قد استعدوا للمناسبة.. وكان بهو الاستقبال الكبير في بيتهم يتحول إلى مكان إحتفال حقيقي.. خاصة وأن لديهم آلة تسجيل كبيرة وستيريو يوزع الصوت في أركان البهو.. وكان للآلة مكبّر للصوت.. يضعونه على طاولة صغيرة، ليست في الأصل من أثاث البهو، هي طاولة مفردة يستعملها الأولاد عندما يريد أحدهم أن يدرس في الشرفة، وكانت جمانة أكثر من يستعملها..

يحضرونها لمناسبة الأحتفال.. ويضعون عليها غطاء أبيض، ثم مكبر الصوت، ويضعون الهدايا ويجلس الوالدان في صدر البهو.. وإذا كان عندهم ضيوف من الشام أو من الجيران فإنهم يشاركونهم الأحتفال.. ولكنهم لا يدعون اليه دعوة رسمية.. ويتوزع الأولاد في أنحاء البهو.. وتقوم سحر الأخت الكبرى بمهمة عريف الحفل.. كانت هذه مهمتها التي لا ينافسها عليها أحد..

حضر عمر بعد ظهر ذلك اليوم بعد أن انتهوا من احتفالات المدرسة قبل الظهر.. وفوجيء بالاحتفال المنزلي.. وظهر عليه الفرح.. وطلب أن يشارك بالقاء قصيدة عن الأم..شعر أهل جمانة أنهم أمام سعيد عقل، يلقي قصيدته باللهجة نفسها وبحركاته المسرحية نفسها..

وفي اليوم التالي طلب عمر من جمانة أن يأتي هو وبقية الرفاق ليقدموا التمثيلية لأهلها في البيت.. رفضت جمانة، وقالت يكفينا احتفال عيد الأم، هل تريد أن تحول البهو إلى المسرح.. لن يرضى أهلي..

وتوطدت العلاقة بين جمانة وعمر أكثر فأكثر بعد أن تعرف

بقية أفراد العائلة.. واستقر في ضمير العائلة أن عمر سيكون زوج المستقبل.. ولكنه اكتفى بالبكالوريا قسم أول، وسافر إلى ديترويت في الولايات المتحدة الأميركية، لأن أهله من المغتربين ويحملون الجنسية الأميركية، وكان عليه أن يؤدي خدمة العلم.. قال لها سيغيب سنة .. وربما أكثر قليلاً.. كانت رسائله لا تنقطع.. دائماً يعنونها بالصديقة النبيلة .. كان خيالياً جداً، ذا مزاج فني بوهيمي.. يبدو له أن روح جبران خليل جبران قد حلت فيه.. حتى أنه أرسل لها مرةً اسطوانة موسيقى كلاسيكية ومعها صورته الشمسية، وقد بدا فيها يشبه جبران حتى بشكله الخارجي.. وقد اتخذ فيها وقفة مسرحية، وسرح نظره عالياً إلى وردة رفعها بيده... وأخبرها في الرسالة أنه يكتب قصائد شعرية بالانكليزية، وسينشرها في مجموعة، وقد اتفق مع دار نشر، وقد أهداها لها وسمى المجموعة باسمها! وفعلاً صدرت المجموعة فيما بعد..

كانت جمانة تخبيء رسائله وتحتفظ بها، ولكنها لا تفكر فيها كثيراً، فهي مهتمة بدروسها قبل كل شيء.. وقد نجحت في آخر العام، وحصلت على شهادة البكالوريا ـ القسم الثاني ـ

فرع الرياضيات..

لم تدخل جمانة فرع الصيدلة ولا أي فرع علمي آخر في الجامعة، خلافاً لرغبة والدها الذي حاول إقناعها بدون فائدة.. حجتها أنها لن تستطيع تحمل هذا النوع من الدراسة. صحيح أنها نجحت في الرياضيات.. ولكن هذا يعتبر مبادىء أولية لما ينتظرها فيما إذا حاولت السير بهذا الاتجاه.. إنها لا تريد أن تكابر، وتدعي القدرة على ما لا تستطيعه حقيقة.. أخبرته أن الجامعة اللبنانية قد استحدثت كلية للاعلام والصحافة، وأنها ستدخلها..

وهنا كانت الطامة الكبرى.. قال والدها: الصحافة.. أتريدين أن تتخصصي بالصحافة.. وهل الصحافة تحتاج إلى تخصص.. لقد عملنا بالصحافة ومارسناها دون كليات ولا جامعات.. هل يدخل المرء الجامعة من أجل فرع كهذا.. ولكنها أصرت وكان لها ما أرادت.. لأنها اعتقدت أن هذا الفرع ليس أدبياً خالصاً ولا علمياً خالصاً وإنما هو فرع فيه من كل بستان وردة.

وكانت الجامعة مرحلة أخرى من حياة جمانة.. كانت الأجمل والأبهى.. لقد كانت اختباراً في الحياة تدخله منفردة

لا يرافقها فيه أحد من إخوتها.. شعرت بنوع من الاستقلال الذاتي والحياة الخاصة.. وحدها في مكان كل من فيه جديد عليها.. تواجههم وحدها.. دون عزوة من أخ أو أخت.. ولكن لها من شكلها الارستقراطي وجمالها الهادىء.. وصيت والدها.. والمكانة الاجتماعية كل العزوة.. شعرت أن لها حضوراً مميزاً..

كانت تمزج بين العمل والمتعة.. أحبت نوع الدراسة، والمواد التي تتلقاها يوماً بعد يوم.. وأحبت الجو الطلابي الذي عاشته بكل أحاسيسها.. كانت تشارك بمعظم النشاطات التي تنظمها الكلية.. شاركت في الرحلة الاعلامية لزيارة الجنوب اللبناني، عندما كانت الاعتداءات الاسرائيلية تشكل رداً على عمليات المقاومة الفلسطينية.. رحلة، زار الطلاب فيها الأهالي، وألقيت الخطابات الحماسية.. وكان رئيس فرع الإتحاد، اتحاد الطلبة في كليتهم، خطيباً يثير الحماسة وقد أوصاهم قبل الرحيل أن يكونوا جديين.. وألا يتأففوا إذا وقفوا تحت المطر.. فالناس هناك يعانون التشرد والخوف والرعب. فالغاية من هذه الرحلة ليس التسلية، وان كانت لا تخلو من التسلية مدة الطريق من بيروت إلى الجنوب فالأغاني يصدح فيها الطلاب، منها الوطني ومنها

العاطفي، والنكات من مستويات متنوعة، وألعاب مشتركة.. والرقص.. حتى أن رئيس فرع الاتحاد نفسه وقف في الممر الضيق بين مقاعد الباص، وراح يرقص ويحرك أطراف سترته بشكل دائري كما تفعل فتيات الستربتيز، ثم يخلعها ويرميها..

أحبت جمانة التدريبات العملية، حيث يقسم الصف إلى مجموعات طلابية تتوزع في دور الصحف اليومية والمجلات الاسبوعية.. كان بين أساتذتهم أصحاب صحف، ورؤساء تحرير، وكتاب مقالات سياسية..كل يشرف على مجموعة يتم تدريبها في الصحيفة التي يرئس تحريرها أو يكتب فيها.. رأت جمانة كيف تتم عملية الميزامباج ومارستها وعرفت آلية عمل الزنكوغراف.. وحضرت اجتماعات التحرير، وعرفت كيف تقرر الموضوعات الاسبوعية.. وكيف تتم المفاضلة بين الأخبار.. وكيف يتم اختيار موضوعات الغلاف.. وعلى أي أساس تختار المانشتات الرئيسية في الصحف اليومية.. كما زارت جمانة مع الرفاق المطابع لكي يرافقوا العمل الصحفي في جميع تطوراته، حتى يصبح عملاً كاملاً متداولاً بين الناس.

كانت مأخوذة بكل ما ترى وتعمل.. وكان يسعدها أكثر

ما يسعدها عندما يأخذ أحد الأساتذة بالثناء على والدها وأخلاقياته الصحفية العالية، هذه الأخلاقيات التي تحمل حتى من يخالفه بالرأي على احترامه.. يجري ذلك في الصف وعلى مسمع من بقية الطلاب، وهذا كثيراً ما كان يحدث، ومن قبل أكثر من أستاذ، فيملأ نفسها زهواً وسعادة.. لم تشعر جمانة حقيقة بهذه المكانة المميزة لوالدها إلا عندما دخلت الجامعة ورأت احتفاء الأساتذة بها. فتنتقل عدوى الأحتفاء هذه إلى زملائها وزميلاتها..

كان كل ما فيها يغري بالتودد إليها.. والسعي لصحبتها مع محاولة التحرش بها.. جمالها الأرستقراطي الهادىء.. نبرة صوتها المميزة.. أناقتها.. واجتهادها.. نظارتها الطبية التي تزيد عينيها العسليتين جمالاً فوق جمالها.. كانت نظارتها الطبية ميزة جمالية لافتة.. إذا دار الحديث عنها في غيابها يشار اليها بأنها تلك الحلوة أم النظارة.

كانت تبدو في ظاهرها هادئة سلسة مرنة وحيّة.. ولكنها كثيراً ما تفاجىء محدثيها برأي غير منتظر وتحشرهم وتحرجهم دون أن تخرجهم، حدث ذلك مرةً عندما كان أستاذ يساري

الميول، والكلية كانت تضم أساتذة من الجنسين ومن جميع الاتجاهات.. فيهم التقدمي الاشتراكي، واليميني المتطرف.. والمعتدل.. والخوري، والشيخ، والقومي والعربي.. والشيوعي..

أخذ الأستاذ اليساري يثني على الاتحاد السوفياتي بأنه من أكثر الدول احتراماً للمعاهدات والمواثيق.. ورأت جمانة أن ذلك لا غبار عليه.. ولكنه في مناسبة ثانية ذكر المملكة العربية السعودية.. وبشيء من السخرية قال: تصوروا أن الملك يعطي كلمة وتكون بمثابة ميثاق مكتوب، لا يرى حاجة لتوقيع أوراق ومعاهدات مكتوبة..

بعد انتهاء المحاضرة.. انتظرت جمانة خارج الصف، وطلبت منه الكلام بأدب جم.. فذكرته بما قاله في مرة سابقة عن دولة الاتحاد السوفياتي، واحترامها للمواثيق، وطلبت منه أن يذكر لها الفرق من الناحية الأخلاقية بين احترام الاتحاد السوفياتي لمواثيقه وبين احترام الملك السعودي لمواثيقه.. قائلة لا فرق طبعاً.. وهل هذا الفرق إن وجد يستدعي ذكر الأول بكل التقدير وذكر الثاني بكل السخرية..

ولم تزد شيئاً على ذلك، فعلت ذلك فقط لتسجل موقفاً

وتلفت نظر الأستاذ إلى أن ما يقوله يسجل عليه.. وأنه من الأفضل أن يكون متوازناً وعادلاً في أحكامه.. وقد ظهرت نتيجة تصرفها هذه في محاضرة قادمة، عندما افتعل الأستاذ مناسبة وصحح كلامه وأخضعه لميزان العقل والعدل.. وكان ذلك اعتذاراً غير مباشر منه لجمانة.

وقد كان لجمانة موقف آخر في مجال آخر لم تستطع أن تفوت فرصة تسجيله.. وقد اقتضى منها ذلك أن تنتظر عاماً كاملاً لتحقيقه..

كان ذلك إبان حرب تشرين التحريرية ١٩٧٣، كانت الكلية شعلة حماسة.. الطلاب والطالبات ليس لهم إلا المناقشات والتحليلات.. ومتابعة أخبار المعارك والانتصارات.. وكان هناك فئة لم يرقها انهزام اسرائيل، واسترداد العرب شعورهم بالعزة والكرامة.. فوقف أحد أفراد هذه الفئة في مجموعة من الطلبة ضمت جمانة فيمن ضمّت، وبمنتهى اللؤم والحقد قال: كفاكم هرجاً ومرجاً.. انتظروا فقط عاماً واحداً وسترون كل العرب يتزاحمون لفتح سفارات لهم في اسرائيل... وكانت جمانة تسمع وترى.. ولكنها لم تشأ أن تقل شيئاً، في الوقت الحاضر على

الأقل. وأجلت الرد في ذلك الحين.

كان ذلك في بداية العام الدراسي ١٩٧٣-١٩٧٤، وكانت جمانة في سنتها الجامعية الثالثة.. وعادة السنة الثالثة تتحدد فيها الاختصاصات. ويشعر الطالب أن عليه مضاعفة جهوده كي لا يضطر إلى إعادة السنة أو التأخر. وجمانة كانت حريصة على الانتهاء من سنوات الجامعة والحصول على الشهادة بعد أربع سنوات دراسة فقط، كما هو مقرر.

وبعد مرور عام على تبجح ذلك الطالب التقت به مرة مصادفة على درج الكلية، فاستوقفته دون مناسبة ظاهرة.. فهو لم يكن طالباً معها في الصف نفسه، فوقف مستغرباً.. لأنه لا كلام بينهما.. أحدهما بالنسبة للآخر ليس إلا أحد طلاب الجامعة.. قالت له: لقد قلت في العام الماضي، إنه لن يمضي عام حتى نرى الدول العربية تتزاحم لفتح سفاراتها في اسرائيل.. وها قد مضى عام ولم تتحقق أمنيتك.. العرب لن تعترف باسرائيل، ليس الآن، ولا بعد مئة سنة.

سدد إليها نظرة مسمومة.. تغير لونه.. صار اللؤم يتنامى في تضاعيف سحنته.. لم يقل شيئاً.. فاجأته ثم تركته وانصرفت.

بينما كانت جمانة مستغرقة في حياتها الجامعية، تزوج اخوتها سعيد، وعاطف وحسام، وانفصلوا عن بيت العائلة.. وكذلك أختها هند، وأعلنت خطبة أخيها أحمد وأختها هالة. ومع أن هنداً وهالة تصغران جمانة بعدة سنوات.. ومع أنها شعرت ببعض الضيق لأنهما سبقتاها بالزواج، ولكنها فضلت ألا تتسرع بهذا المشروع..

ورغم أن ابن خالتها عاصماً كان جاهزاً وتحت الطلب.. منذ أول سنة جامعية لها.. إلا أن حياتها الجامعية وعلاقاتها المتعددة والمتنوعة جعلت مساحات الحلم لديها غير مستقرة، مرة تتسع ومرة تضيق.. وظل عاصم هو الوعد المؤجل.. الذي ينتظر التحقيق يوماً ما.. حكمتها: اليوم خمر وغدا أمر.. لن تعكر سعادتها، ولن تضيق الخناق على نفسها.. لتعش اليوم كما تقتضيها ظروفه وشروطه المتاحة. وغدا لكل حادث حديث.

كانت لها صديقة، وهي أرمنية من حلب، اسمها صونا.. رافقتها طول أربع سنوات، منذ أول سنة إلى آخر سنة.. وكان لها صديقان يحملان ـ للمصادفة ـ الاسم نفسه، كلاهما اسمه هاني، ولكنهما على طرفي نقيض أحدهما هاني اللباد، جدّي إلى

أقصى حدود الجدية مجتهداً جداً، ودؤوب، وكان يطمح إلى الحصول على منحة للتخصص في الخارج، وهو إلى ذلك خجول جداً. ربما خجله هذا هو الذي قرّبها منه، فلم تجد حرجاً في مصادقته كأنه صديق من جنسها، لا صديق من الجنس الآخر.. في غرفة المحاضرات، يجلسان في مقعدين متجاورين، جمانة في الوسط يحيط بها صونا وهاني. يذهبان الى مكتبة الجامعة الاميركية سوية.. كان يفضل أن يذهبا سيراً على الأقدام من الجامعة اللبنانية في منطقة الاونيسكو إلى الجامعة الأميركية في رأس بيروت.. كانت تشعر أنه يفعل ذلك ليطيل مدة السير بجانبها.. وكانت تحب رياضة المشي.. وأحياناً يرافقها للتسوّق. إذا أرادت أن تشتري شيئاً خاصاً بها فإنه يبدي عجبه من اختيارها للأشياء الغالية الثمن مع وجود ما يفي بحاجتها مما رخص ثمنه.. يغار عليها.. لم يقل لها يوماً إنه يحبها، ولكنها كانت تشعر بهذا الحب.. دون أن تبادله إياه..

كانت عينها على هاني ابراهيم.. فهو نقيض هاني اللباد.. سريع النكتة، جريء باقتحام أية مجموعة طلابية.. صوته عالٍ، نبرته واضحة.. لعوب، كثير الصديقات.. عنده سيارة رينو

بيضاء، تساعده على نقل مغامراته العاطفية إلى حيّز التنفيذ..

كان هاني ابراهيم الأخ الأكبر لأربع بنات وصبي صغير .. من عائلة متوسطة الحال.. لم يخطر لأي أفرادها أن ابنها البكر قد يتزوج أو يفكر بالزواج قبل اخوته البنات.. ولم يكن تزويجه من هموم أبويه قط.. يكفي العائلة أنها ساعدته على التدرج في مراحل التعليم حتى وصل إلى الجامعة، في جو عائلي مريح. عندما يتخرج يتكفل هو بأمور حاضره ومستقبله.. ولا تريد منه عائلته شيئاً..

لم تدر جمانة كيف أصبح هاني ابراهيم ينافس هاني اللباد.. ولا يتورع عن مضايقته لأتفه الأسباب.. يبكر بالدخول إلى قاعة المحاضرات لكي يسبقه بالجلوس إلى جانب جمانة.. فيضطر الآخر للانكفاء.. مكسور الخاطر.. يطوي حسرته، ويخرج من القاعة قبل دخول الأستاذ وابتداء المحاضرة.. يفضل أن يخسر المحاضرة على أن يرى الآخر مستمتعاً بما يعتقده حقه المكتسب.

لم تدر جمانة كيف اقتحم هاني ابراهيم قلبها، واخترق أسوارها، وأيقظ مشاعرها.. وتدرجت الأحاديث بينهما من التلميح إلى التصريح.. خطتها أن تصده من حيث لا تمنعه.. لم

تقل له لا، ولم تقل له نعم.. لم تسعد قلبه بأية نزهة خلوية يقومان بها بمفردهما.. لم تركب سيارته قط، حتى عندما تكون مكتظة بغيرها من الرفاق والرفيقات..

أصبحا متلازمين في قاعة المحاضرات.. رأساهما متقاربان يتابعان الثرثرة دون اعتبار لما حولهما.. وحين يعلو صوتاهما قليلاً.. تتصاعد الهمهمة من الطلاب.. ولا يتورع أحدهم عن القول: دعونا نزوجهما ونخلص منهما..

وفي يوم كانت صديقتها صونا تزورها في البيت.. تتجاذبان اطراف الحديث وتقلبان النظر بمجموعات الصور العائلية.. صور حفلات الخطوبة والأعراس، وأعياد ميلاد الأبناء والبنات، وصور الرحلات إلى الخارج.. كل حفل أو مناسبة لها ألبوم خاص.. وتقوم جمانة بمهمة المرشد السياحي لصديقتها، تشرح لها ظروف بعض الصور.. تحدثها بالتفصيل عن بعض الأشخاص الذي تستفسر عنهم.. كان بين الصور صورة لعاصم.. تسأل صونا: هل هذا هو نفسه ابن خالتك الذي حدثتني عنه؟ وعندما تجيب جمانة بالايجاب تقول صونا:

- هناك فرق كبير بينه وبين هاني ابراهيم.. هاني هذا ليس

منكم.. أنصحك ألا تتورطي معه بخطوبة أو زواج.. ابن خالتك خير لك منه.. إنّه قريبك..

العائلة واحدة والتربية واحدة.. وستشعرين أكثر بالأمان في الوسط الاجتماعي الذي نشأت عليه، فأنت منه وإليه..

لم تكن جمانة بحاجة إلى تذكيرها بهذه الناحية.. ولكنّه نداء القلب.. والرغبة في التغيير.. والشوق إلى إستقلال حقيقي.. شيء تدركه ولا تستطيع تفسيره، يشدها إلى هاني ابراهيم.. ميزة واحدة يتمتع بها هاني ويفتقد إليها عاصم، هي أنه يحمل شهادة جامعية. وعمله سيكون في حقل ذي مستوى فكري واجتماعي راق.. معه تتسع دائرة أحلام جمانة.. جمانة المرأة والزوجة.. معه قد لا تضطر إلى الاعتماد على نفسها لتحصيل مركز تعتز به.. نجاحه في عمله الصحفي سيكون نجاحها هي... معه ترضى أن تكون مواطنة درجة ثانية.. أما مع عاصم فلن ترضى إلا أن تكون مواطنة درجة أولى.. عمله التجاري قد يحافظ على مستوى المعيشة المادي، ولكنه لن يحقق طموحاتها المعنوية..

قررت جمانة أن تصارح هاني ابراهيم بحبها ورغبتها بالزواج

منه.. في أول فرصة مناسبة تسنح لها..

ولم تكن هذه الفرصة بعيدة التحقيق. فهو كعادته كلّما يراها يكرر دعوتها لمرافقته في نزهة خلوية.. هذه المرة قالت له:

- لماذا تصرّ على نزهة خلوية كهذه؟ ألم تيأس من امكانية تحقيقها بعد كل هذا الرفض.

يجيبها ضاحكاً: وهل مثلي يعرف اليأس

- وعلى أي أساس تريدني أن ألبي طلبك؟

يجيبها هاني: وهل المسألة تحتاج إلى أساسات، الأمر لا يعدو نزهة، هل سيندكّ الكون وتنطبق السماء على الأرض إذا فعلت ذلك.. يحتاج المرء إلى لحظات يروح فيها عن نفسه، وينطلق فيها على سجيته.. جرّبي، وستشعرين بسعادة لم تعرفيها قبلاً..

- لا أنكر أن المرء يحتاج إلى لحظات يروح بها عن نفسه، ولكن أفضل ألا أخسر نفسي أيضاً في تلك اللحظات..

- وما الذي ستخسرينه.. على العكس ستستعيدين نفسك من جديد.

قالت جمانة: القضية بالنسبة لي قضية مبدأ.. أنا لا ألهو إلا مع زوجي فقط.. أو الذي سيكون زوجي أو أطمح في أن يكون.. وفي حال تأكدت من مشاعره نحوي.

- وهل تشكين بمشاعري نحوك؟

- نعم أشك، فأنت فتى لعوب.. وقد سمعتك منذ مدة تقول عن زميلتنا جوزفين التي أعلنت خطبتها أخيراً..

- ماذا سمعت؟ أخبريني.

- قلت: الحمد لله أنني أدركتها قبل خطبتها ولم تفت علي فرصة اللهو معها..

- وهل تشبّهين نفسك بجوزفين.. هي فتاة لاهية.. لم تترك زميلاً لها الا وكان لها منه وله منها نصيب من اللهو.. أنت شيء آخر..

- ما دمت شيئاً آخر لماذا تطلب مني أن أكون مثلها..

- لا أطلب منك أن تكوني مثلها.. ولكن كيف ستقدمين لي برهان على صدق مشاعرك.. إني أرى نفسي لا أتميز بشيء

عن هاني اللباد بنظرك ولا بمعاملتك فإنه لا يفارقك لحظة..

- أولاً صِدْقُ المشاعر ليس بحاجة للكلام.. مع أن هاني اللبّاد لم يقل لي يوماً إنه يحبني.. ولكنني لا أشك في حبه لي.. ولا بالمنزلة الخاصة لي في نفسه.. أما أنت مع أنك أجرأ منه، وتقولها في كل مناسبة، فإن الشك لا يفارقني.

هزّ هاني رأسه، وسرح بنظره، مدركاً أن ما قالته عن هاني اللباد ومشاعره لا يخلو من الصحة.. ولكنه استأنف قائلاً: ماذا تقصدين.. ألا تريدين أن تقبلي دعوتي! إنها مجرد دعوة لا أكثر ولا أقل. دعوة إلى الغداء في أحد مطاعم الجبل. وإذا كنت لا تريدين مكاناً عاماً فإنني أشتري فراريج مشوية ونذهب إلى بيتنا في بحمدون.. لن تذهب العائلة إليه قبل الصيف..

ابتسمت جمانة وقالت: دعني أفكر في الأمر.

في الحقيقة جمانة قد فكرت بالأمر قبل الآن بزمن. ولكنها أرادتها مرة وحيدة لا تتكرر.. وما التأجيل والادعاء بأنها ستفكر بالأمر إلا لكي تضمن أن الوقت والظروف لن تسمح بمرة أخرى..

كانت السنة الأخيرة في الجامعة. وقد جرت حادثة باص عين الرمانة في ١٣ نيسان.. وبدأت البلد بالغليان.. الأجواء مضطربة.. والطرقات لم تعد سالكة ولا آمنة كما كانت.. إنما تتراوح بين كر وفر

لذلك استغل طلاب الإعلام السنة الرابعة في الكلية فرصة الهدوء النسبي التي استمر حتى نهاية أيلول.. وعقدوا اتفاقاً مع الأساتذة والمسؤولين مفاده أن يقرّبوا موعد امتحاناتهم النهائية عن الموعد المقرر المعتاد..

والإقتراح النصحية قدم في الأصل من المسؤولين الإداريين للطلاب والأساتذة معاً قائلين: أنتم الآن في سنة التخرج.. ومن المتوقع أن تضطرب أمور البلد أكثر فأكثر.. فضاعفوا جهودكم حتى منتصف أيار.. وأجروا الامتحانات قبل موعدها.. كي لا يتأخر تخرجكم.. من يعلم كيف ستتطور الأمور.

إلا أن الإقتراح لم يلق قبولاً من كل الطلاب والطالبات.. لأن تقريب موعد الامتحانات لن يعطيهم فرصة للتحضير.. وامكانية النجاح قد تكون محدودة ولكن بعد أخذ ورد وافق

الطلاب الرافضون، وحدد موعد الامتحان النهائي. وكان ذلك بصورة استثنائية لطلاب السنة الأخيرة فقط..

لقد أشرفت السنة على نهايتها.. وأيام الجامعة بالنسبة لجمانة أصبحت معدودة... وقضيتها مع هاني ابراهيم لم تنته فصولها بعد.. قبلت جمانة أخيراً دعوته.

كان ذلك في اليوم الأخير الذي سبق عطلة الامتحانات. رأت جمانة أن هذا اليوم هو اليوم المناسب الوحيد. فبعده لن تكون هناك مرة أخرى.. فهي لن تذهب الى الجامعة إلا وقت الامتحان.. وبعد الامتحان، كل صلة لها بالجامعة قد تنتهي.

اشترى هاني غداءً لهما.. وركبت إلى جانبه في السيارة، واتجها إلى طريق بحمدون.. وكانت أغنية عبد الحليم حافظ تصدح من مذياع السيارة.. تتحدث عن الحب الأول، الذي يستوقف قطار العمر مرة واحدة، ولكنه يترك بصماته في كل محطات العمر.. كان كلاهما لا يصدق أنه مع الآخر وحيداً وطائعاً ومختاراً..

بدا لها أن المستقبل مع هاني ابراهيم غامضاً غير واضح المعالم..

أجلت التفكير حتى تنتهي من الاستعداد للامتحان.

في أثناء أيام الامتحان وحتى آخر يوم فيه كان هاني يكرر دعوته ويلح بطلبه.. وكانت تصر على الرفض. قالت له: هي مرة وحيدة لن أكررها.. فعلتها فقط لأثبت لك صدق مشاعري نحوك.. وأخبرته أنها ستنتظره بعد ظهور النتيجة شهراً ليحدد موقفه ويتقدم لخطبتها.. وإلا سوف ترتبط رسمياً بابن خالتها الذي ينتظرها منذ أربع سنوات

إلا أن ظروف هاني العائلية لا تسمح له في الوقت الحاضر.. إذ أن عليه أن يبحث عن عمل، ويؤمن متطلبات الزواج.. لأن أهله لن يتمكنوا من مساعدته..

قالت له: لن أنتظرك أكثر من شهر، وبعد ذلك يذهب كل منا في سبيله.

- هل تظنين أن الأمر بهذه السهولة.. الحب تضحية.. ألا يمكنك الإنتظار ريثما أهيىء الظروف المادية..

- أنا لا أؤمن بهذه التضحيات المجانية. وانتظار الظروف المادية قد يطول.. من يعلم ربما يحتاج الأمر سنوات.. بعدها

قد تتغير عواطفنا ونجد أنفسنا مضطرين لتنفيذ وعد لم يعد له ما يبرره.. الآن والا فلا..

- هكذا اذن.. اذهبي وتزوجي.. ولكن غداً عندما أتخطى صعوباتي المادية.. سأسعى لأطلقك من زوجك حتى ولو عندك أولاد.. ثم أتزوجك.. ستريـن.

وافترقا، وخيم الصمت القادم من براري الحزن.. وانـزوى هاني في صدفته ممزقاً بين خلايا جسده..

ظلت جمانة كما هي تنفرد بحريتها منذ الصغر، وبتلقائية عجيبة تسافر الى عوالم مركبة فيها الصور تتعاقب بالابتكار وفيها الصبر يترعرع بالخرافة.. انقضى شهر الانتظار.. رفعت جمانة سماعـة الهاتف وأدّارت القرص:

- آلو.. هل هاني موجود؟ أنا زميلته جمانـة..

- جمانة!! هاني مريـض.

كانت أخته الصغرى على الطرف الآخر. ردت جمـانـة: مريض.. ألا يستطيع التحدث إليّ

- بلى إنتظري لحظة من فضلك

بعد لحظات يأتيها صوت هاني واهناً: آلو..

وعوضا عن الكلام يأتيها من الطرف الآخر صوت بكاء.. إنه يبكي.. ويبكي ويعلو نحيبه..

هاني أنت الممتطي للريح.. والمتلبس للسحاب.. لا تبك كاسفنجة.. هو العالم قادم إليك معي أو بدوني.. هو العالم مرن ومطاط كالعدالة.. هو العالم واسع واسع ومملوء بك..وأنت يا هاني أتقنت حب الانفجار فلتغامر.. هنالك في أقاصي الأرض.. لا بد أن تكون زهرة تنتظرك.

الربح مؤكد والخسارة اختيار.. وانسدل الستار على آخر مشهد.. وتصالحت بكارة الضوء مع عتمة الظلمات.. كان وداعها الأخير تمنّت له كل الخير وكل النجاح في مستقبل أيّامه.

بدأت باتخاذ خطوات عملية لتنظيم حياتها ومستقبلها بعد شهر الانتظار ذاك.. اتصلت جمانة بهيام زوجة أخيها حسام وأخت عاصم الصغرى.. وأخبرتها أنها الآن مستعدة لاعلان خطبتها على عاصم.. وطلبت منها أن تتصل به إلى دمشق وتنقل

له موافقتها على تحديد االيوم الذي يناسبه.

قبل أيلول من ذاك العام تم إعلان خطبة جمانة وعاصم، واتفق الخطيبان مع العائلتين على أن يكون العرس بعد سنة ريثما يتم إعداد منزل الزوجية.. فتتمكن العائلة من إقامة احتفال مناسب لجمانة أسوة بأخوتها وأخواتها..

ولم تدر جمانة أن مع بداية فترة الخطبة هذه كانت بداية حرب السنتين الفعلية.. سنة ونيف عاشتها جمانة على ضوء القناديل المضيئة، وتحت دوي المدافع.. سنة ونيّف عاشتها جمانة مع العائلة وكلما اشتدت المعارك يهرع اخوتها وأخواتها مع الزوجات والأولاد والأزواج إلى بيت العائلة الكبير للاحتماء فيه وكأنه قلعة أو حصن أمين.. أيام لا تنسى اختلط فيها الرعب بالمرح الحزين.. والموت بالولادة.. فقد ولدت هند ابنها البكر، وهي مع أنها كانت تقيم في دمشق إلا أنها أتت لتضع مولودها وهي في حضن أهلها، وقبل ذلك بفترة وجيزة ولدت لعاطف ابنته البكر.. وبين فترة هدوء وأخرى يتسرب فرع صغير من عائلة عزت جواد، أحد الأبناء مع عائلته، أو إحدى البنات مع عائلتها.. يتسربون كانسراب الماء من بين الأصابع.. الشباب

يذهبون عن طريق المطار إلى إحدى البلاد العربية، لأن أوراق الجندية غير مستوفية الشروط، والزوجات والأولاد يذهبن بطريق البر إلى دمشق.. يعانين الترقب والانتظار ريثما يهيء الأزواج حداً أدنى من الاستقرار في البلد الذي حطوا رحالهم فيه.. يستطيعون بعده استدعاء الزوجات والأولاد.

- ٩ -

مادامت هند قد استقرت في دمشق.. فلا بد أن تستقر الأمور عند جمانة، هكذا أخبرت أختها سحر في الوقت الذي كانت تخيط فيه ثياب العرس، وتعد ما يلزمها من حوائج شخصية في بيت الزوجية.. قالت: وجود هند إلى جانبي يساعدني على التأقلم مع جوٍ كل ما فيه جديد.. مدينة جديدة.. ومجتمع جديد.. وأهل جدد.. ليس فيهم من أعرفه معرفة حقيقة رغم أنهم أهل وأقارب.. حتى شريكي في البيت قد يكون بعد العشرة مختلفاً..

كل شيء بالنسبة لجمانة يهون.. مادامت تستطيع أن تنام ليلة كاملة هادئة.. لا الرعب يزلزل كيانها.. ولا الخوف يجردها من انسانيتها ويحولها فأراً يتحسس زاوية مظلمة يحشر نفسه فيها.. لا شيء يذل الإنسان كالشعور بالخوف.

استقرت جمانة مع عاصم في بيته في دمشق.. الذي أصبح بيتها وملاذها.. تعلقت به، بالبيت، إنه أقرب إلى الكوخ.. وما

الضرر في ذلك.. ألا يتمنّى المحب أن ينفرد مع حبيبه في كوخ في جزيرة نائية لا يرى أحداً ولا يراه أحد.. أليس هذا ما نقرأه في الروايات وقصص الحب الرومانتيكية.. حبيب جمانة في هذا الكوخ هو الشعور بالأمان، الذي افتقدته طويلاً.. والآن أصبحت تتنفسه مع الهواء، وتحس برده يتغلغل في شرايينها.. شعرت بالأمان.. وهذا يكفي الآن.. وكان للبيت ميزة أخرى هي موقعه في المدينة. فقد كان في أحد أرقى أحيائها.. في آخر شارع الكرامة.. يكفيها أن تخرج إلى الشارع وتغلق الباب خلفها وتسير خمس دقائق حتى تصل إلى أكبر حدائق دمشق وأنقها.. حديقة الجاحظ... وإذا سارت عشرين دقيقة تصل إلى محل زوجها.. ويوماً بعد يوم بدأت تكتشف المدينة..هند دليلها ومرشدها السياحي.. معها وبفضلها وبفضل نشاطها وحيويتها تعرفت بالأقارب والأهل.. وكان أقربهم إلى نفسها بعد أختها هند شقيقة زوجها الكبرى ناديا.. وهي في الوقت نفسه زوجة عمها الأصغر سليم.. أولادها سبعة: بنتان صبيتان.. كانتا يمثابة أختين لجمانة.. وخمسة أبناء ذكور..

عندما ولدت جمانة ابنها الأول.. كانت ناديا والبنتان مع

أختها هند إلى جانبها.. وصارت جمانة جزءاً من عائلة عمها.. تشاركهم في مناقشة المشكلات العارضة وتقترح حلولاً لها.. كانت تراهم في الاسبوع مرة أو مرتين.. تذهب إليهم أو يأتون إليها.. وأحياناً ترافقها هند وتنتظران حتى يأتي حازم زوج هند بعد انتهاء عمله في المحل ليأخذهما، فيوصل جمانة إلى بيتها أولاً ومن ثم يعودان إلى بيتهما.. إلا أن عمها المولع بطاولة الزهر لا يتركه يرحل إلا بعد أن يربح منه دوراً.. فاذا ربح منه الدور الأول أفرج عنه، وإلاّ فانه يستمر باللعب حتى يربح. وإذا لم يفعل لن يستطيع أن ينام.. يفقد أعصابه ويعلو عنده ضغط الدم.. كأنها مسألة حياة أو موت. فيضطر حازم لمسايرته.

ربما تعدد خيوط القرابة مع ناديا جعلها الأقرب إلى نفس جمانة. فهي شقيقة زوجها الكبرى، وابنة خالتها وزوجة عمها.. فأولاد ناديا هم أبناء عمها، وفي الوقت نفسه هي زوجة خالهم.

لكن ذلك ليس السبب الوحيد. فأخلاق ناديا وعفويتها في المعاملة، وطيبة قلبها ولهفتها هي السبب الآخر وربما الأقوى.. كما أن الألفة بينها أي بين ناديا وأبناء خالتها اسعاف وسلفها الكبير عزت جواد تمتد جذورها إلى الماضي البعيد منذ

تزوجت.. قبل نزوحهم إلى بيروت وبعده.. فهي لم تنقطع عن زيارتهم والإقامة عندهم أياماً وليالي، ودائماً كانت تتخذ مبادرة السفر وحدها دون زوجها الموظف، حيث عمله ومسؤوليات الوظيفة وساعات الدوام لم تكن تسمح له بالسفر في أي وقت يشاء.. يكتفي دائماً بجهود زوجته التي تقوم بكل الواجبات الاجتماعية الضرورية.. وهو يوافقها على كل ما تقوم به شاكراً وممتناً.

كانت ناديا لزوجها سليم النصف الحلو والقوي.. زوجة كاملة ترضيه ويرضيها وتمتعه ويمتعها.. وكانت لا تخفي هذه العلاقة الحميمة بينها وبين زوجها تحدث عنها القاصي والداني.. ولا تتوانى أحياناً عن وصف تفاصيل هذه العلاقة.. يحدث ذلك بعفوية وبراءة.. براءة من يشعر أنه يرضي الله ويرضي عباده ويرضي نفسه.. أليس هذا حق الزوجة على زوجها وحقه عليها.. حلال علينا هناءتنا.. ولا عيب في الحلال أليس كذلك.. هكذا تخبر ناديا محدثتها في الجلسات الحميمة التي تتهامس فيها النسوة ويستفضنَ في أحاديثهن عن الرجال والأزواج.

نهار ناديا يوازي ليلها تجدداً ونشاطاً وحيوية. في أول عهدها

بالزواج كانت تقوم بخياطة الملابس لقريباتها وبناتهن وأبنائهن. وتكسب من ذلك ما يعينها ويعين زوجها على مطالب الحياة.. وعندما فتح زوجها دكاناً للعطارة ليستغلها بعد الظهر.. بعد انتهاء الدوام من عمله في الدائرة الحكومية، وافقت ناديا على جعل قسم من البيت مستودعاً للبضاعة. وهي التي أوحت له أن يسجل الدكان باسم خلدون، أخيها، فهو بالنسبة لسليم صديق ومستشار، وهو أقرب من يستأمنه على ماله.. لأن الموظف يجب إلا يمارس عملاً آخر مع الوظيفة.. أكثر الناس تقوم باستعارة أسماء غيرها بشكل تلقائي.. يهمها بالدرجة الأولى أن تتجنب حمل المسؤولية القانونية.. أما الناحية الأخلاقية من هذا التصرف فهو أبعد ما يكون عن اهتمامها.. فالضغوط المعيشية، وتزايد أفراد العائلة لا يترك لهم مجالاً إلا التفكير في اتجاه واحد هو كيف يستطع المرء أن ينمّي دخله بطريق شرعي، يكون فيه بمنأى عن يد القانون، على الأقل ظاهرياً.

كان سليم واحداً من الناس، لا يفلسف الأمور.. يفعل كما تقتضيه الظروف، همه أن لا يؤذي أحداً وأن لا يحتاج إلى أحد..همه الأول تأمين الطعام، بوفرة وتنوع.. عندما يرى الثلاجة

ممتلئة بما لذّ وطاب، ورفوف المطبخ مكتظة بالحبوب والبقول والسكر والأرز والبرغل.. يقف واضعاً يديه على خصره، ونافخاً صدره ويقول: الآن أصبح المطبخ يوحي بالثقة. سليم لا يسعى لتأمين الطعام باعتباره واجباً تجاه عائلته فقط، بل هو مصدر متعة له.. مع فنجان قهوة وسيجارة.. وسيران إلى شاطىء نهر بردى في دمّر والهامة وعين الخضراء.. في الربيع والخريف..أما في الصيف فقد يستأجر بيتاً من بيوت الفلاحين في قرية عين الخضراء، ويقضي فيه إجازته الصيفية التي لا تتجاوز خمسة عشر يوماً في السنة.. يقضيها في المصيف مستمتعاً بالماء والهواء ووجبات الطعام التي تعدها ناديا وتبرع في اعدادها، وتتفنن في تنويعها..

تتمتع ناديا بروح الفنان في كل عمل تؤديه.. سواء كان ذلك في فن الطبخ أو في فن خياطة الملابس.. وظلّت كذلك عندما أخذ زوجها يوسع دائرة اهتماماته العملية.. فقد اتفق مع معمل للكرتون.. يستلم منه أطباق الكرتون ويعيدها له علباً للحلويات، خاصة الشوكولاته.

تحول البيت الزوجي بمعونة الزوجة وبموافقتها إلى ورشة

صغيرة للعمل. والعلب التي يتم تصنيعها كانت متنوعة.. منها العادية التي تكتفي باستعمال الكرتون فقط. ومنها العلب التي تبطن بالمخمل والورق المفضض والمذهب.

أسعد اللحظات في حياة ناديا أصبحت تلك التي تصعد فيها إلى السقيفة حيث وضع مولد كهربائي صغير يتصل بآلة النفخ المليئة بالمسحوق الملون حسب الطلب، مرة الأخضر الزيتي، وأخرى الأحمر، وتارة النبيذي، حيث تكون العلبة الكرتونية - الأساس - قد أعدت.. وتبدأ عملية النفخ على مراحل.. عملية تتطلب صبراً وأناة.. كي يكون الرش متوازناً ومنسقاً.. وتتطلب صبراً أيضاً على تحمل رائحة المواد الكيماوية، التي تعبأ في خزان آلة النفخ الصغيرة مما يساعد على التصاق الرذاذ المخملي بالعلبة.

كانت ناديا تستغرق بالعمل ساعات طويلة دون أن تشعر بمضي الوقت.. وكلما أنهت علبة تتوقف قليلاً عن العمل كي تتأمل معجبة هذه القطعة الفنية التي أنتجتها.. ويغمرها شعور الفرح بالنجاح، ويرافق هذه الاستجابة النفسية للنجاح استجابة جسدية تدفعها للرقص وهي قاعدة. أصبح صنع العلب هوايتها المفضلة. لم تعد المسألة مسألة عمل لكسب العيش فقط.

وزوجها بدوره استجدت عنده هواية طريفة. أصبحت حديث العائلة. الهواية هي صنع سبحات من بزر الزيتون. لذلك صار تجميع بزر الزيتون والاحتفاظ به من قبل أفراد عائلة سليم وناديا مهمة لا يتقاعس عنها أحد. فليس هناك أحد يفرط ببزر الزيتون.. ويهدونه لسليم، على أن يخص كلا منهم بسبحة من صنعه..

وقد أدخل التكنولوجيا فاستحضر مقطعاً كهربائياً لقطع طرفي البزرة المدببين. واستحضر مخرزاً سلكياً يعمل بالكهرباء لحفر البزرة من الطرف الى الطرف كي يدخل الخيط الذي يضم الحبات.. واستخدم آلة صغيرة كالتي يستعملها أطباء الأسنان لبرد قشرة البزرة وتنعيم ملمسها. وصار يتفنن في زخرفة سطح البزرة الخارجي.. وقد صنع مئات السبحات..المتعددة الأحجام، كما صنع ألفية التي تحتوي ألف حبة.

يعيش سليم وناديا وأولادهما عيشة رضية لمن يعرفهم من الداخل، وهكذا بدا الأمر لجمانة.. طموحات بسيطة، ملذات سهلة التناول.. حاجات العيش الأساسية متيسرة متوفرة، وان كان الناظر إليهم من الخارج يرى حياة العائلة خالية من مظاهر

البذخ والترف.. صحيح أن بيتهم واسع وافر عدد الغرف، إلا أنه مهترىء، وبحاجة إلى اصلاحات في كل ركن من أركانه.. يبدو أن العائلة لا تهتم بالمظاهر الاجتماعية حتى لم تفكر بطلاء جدران البهو الكبير الذي ما زالت آثاره الظاهرة تدل على ماضيه الغني المترف. مما حدا يوما بالخالة وداد، أم ناديا أن تقول لكنتها جمانة، عندما رأتها تشتري ورق الجدران اللاصق، وتقوم هي نفسها بتغطية جدران بيتها الصغير في محاولة منهـا لتـحـسين مظهره.

قالت لها: سلم الله يديك.. لقد انقلبت ملامح هذا البيت. هل كلفك كثيراً؟

ـ لا ليس كثيراً.. ولكن لا تنسي أنني أنا قمت بلصق الورق، وهذا وفّر أجرة اليد العاملة..

فقالت الخالة وداد: ما بال ناديا وأولادها وهم كثـر.. إذا كل واحد منهم غطّى جداراً، يصبح بيتهم في أحسن حال.

ردت جمانة: يا خالتي لا تلوميهم.. هذا البيت ليس بيتاً، بل ورشة عمل.. فتارة يستعمل مخزناً ومكاناً لنشر الحشـائـش

التي تعبأ بأكياس، وتباع في دكان العطارة.. وتارة ترينه مـ
للكرتون الذي يستعملونه في صنع علب الشوكولاتـه..

تقول الخالة وداد: ولكن مع ذلك يبدون راضين وسعـ
بواقعهم.

ـ يا خالتي، السعادة نسبية، فما يسعدني قد لا يسعد غير
وقد يعتبره مصدر شقاء.. كثير من الناس لا ترتاح نفوسهم
بمظاهر الفوضى التي تحيط بهم.

ـ ربما هؤلاء منظمون من الداخل. ما يريدونه واضـح
لبس فيه.. وعواطفهم مستقرة، لذلك لا تزعجهم هذه الفوض
الخارجية.

جمانة هكذا منظمة من الداخل جداً. ترسم لنفسها أهد
محددة، قصيرة المدى، وتضع خطة لتحقيقها، وتبدأ خـطـوا
التنفيذ.. وتحاول قدر الإمكان أن تستفيد وإلى أقصى حد
الظروف المحيطة بها. وتحاول بالتالي أن ترصد الحسنات التـ
تتمتع بها ظروفها الآنية. لكي تجنب نفسها وجع القلب وتعـ
الأعصاب.

خلال ثلاث سنوات من عمر زواجهما والتي قضتها في البيت الصغير، أو الكوخ، أو قن الدجاج كما كان يسميه أصدقاء زوجها والأهل الأقربون والأبعدون.. كانت هي تشعر بالسعادة.. استطاعت في تلك المدة أن تشعر بأمومتها تجاه صبيين جميلين رزقهما الله تعالى لها.. وكانت فترة الحمل، خاصة عندما حملت بابنها البكر، فترة لا تنسى ولا توصف بالنسبة لها.. كانت تحس كأنها تطير بدون أجنحة في عالم خاص بها، لا يقاسمها إياه الا حفيف الملائكة.. كانت تحس أن الكون يعزف أعذب الألحان وأرقها.. كان همها أن تتلمس بطنها وتراقب نموه الوئيد.. وتفكر بهذا الكائن الذي يتحرك في أحشائها.. فيمنحها الشعور بالأنس والرفقة الطيبة.. ويبعد عنها أي شعور بالوحشة..

لم يمض ثلاثة أشهر على ولادة ابنها البكر حتى حملت بابنها الثاني.. وصارت تراقب الفرق بين الأول والثاني.. وقد كتبت رسالة إلى والديها وأختها سحر في بيروت تقول فيها: أتوقع أن يكون ابني الثاني لاعب كرة قدم.. فهو يستعمل قدميه بقوة وعنف.. إنه يكاد يمزّق جدار بطني.. ليس هادئاً كأخيه الأكبر..

بعد ولادة ابنها الثاني بستة أشهر أو أقل، استطاع زوجها

أن يشتري بيتهما الحالي، ويدفع ثمنه بالتقسيط..

فصاحب البيت يعاني من مرض عضال وليس لديه أبناء ذكور كي يقطعوا الميراث. ليس له إلا ابنة صغيرة لم تتجاوز عامها الثاني.. خشي عليها من أن يستولي عمومتها على الميراث، فنقل ملكية البيت إلى عاصم على أن يدفع ثمنه علن أقساط بموجب سندات مالية محددة التاريخ يؤديها لزوجته خاصة في حال موته.

أحد أصدقاء عاصم محام، وكان هو واسطة الشراء. فهو صديق الطرفين، ومحاميهما.. ووجد أنه بذلك يؤدي خدمة للطرفين.

هذا المحامي، كان أحد الذين يلتئم جمعهم في محل عاصم التجاري أكثر أمسيات الاسبوع، وتستمر اللقاءات إلى ما قبل موعد الاقفال الرسمي الذي حددته البلدية بالساعة الثامنة.. وكان يعرف الوسط الاجتماعي الذي تنتمي إليه جمانة زوجة عاصم، وكان هو واسماعيل صديق آخر لعاصم.. أكثر من يلح عليه أن يغيّر بيته.. إذ لا يليق به أن يترك ابنة عزت جواد تسكن في بيت كهذا.. حتى أن اسماعيل من شدة اعجابه بعزت جواد

واكباره لمكانته كان يتمنّى لو أنه يتزوج إحدى بناته.. فيرد عليه عاصم:

- لم يبق عنده بنات كلهن تزوجن.. ليس إلا ابنته الكبرى، وهذه مضربة عن الزواج.. لقد تزوجت العمل ونذرت نفسها له.

فيسأل اسماعيل: ألا أستطيع أن أراها.. أن أتعرف بها.. ربما غيرت رأيها..

- الذي أعرفه أنها لن ترضى.. ولكن يمكنك أن تتعرف بها، بشكل يبدو وكأن الأمر مصادفة غير مخطط لها.

- كيف؟

- اذهب إلى بيروت، هناك يمكنك أن تزور عائلة عمي على أنك قادم من قبلي للاطمئنان عليهم. فأنت تعرف أحوال لبنان غير مستقرة، وتتطلب دائماً الاستفسار والاطمئنان على من نحبهم من الأهل والأصدقاء.

- والله، فكرة لا بأس بها، أرجو أن أحققها..

وفعلاً سافر اسماعيل إلى بيروت، وزار العائلة. ولكنه لم ير سحر.. فقد كانت مشغولة، ولم يخطر لها أن القادم له غاية أخرى غير الأطمئنان. ولو علمت ربما كانت استقبلته من قبيل الاستطلاع.

كان اسماعيل من المتدينين، ومن الذين يهتمون بمظهر التدين كاهتمامهم بجوهره.. لذلك كان يحرص على مصاهرة عزت جواد.. فاقترح عليه عاصم أن يخطب منى جواد ابنة أخي عزت جواد، فهي عالمة كيمائية، وتدير مختبراً للتحاليل الطبية في دمشق. وهي في سن سحر تقريباً، وغير متزوجة، وجميلة وعندها دخل مادي ثابت لا بأس به. والتعرف بها ميسور.. ما عليه الا أن يذهب إلى المختبر ويدعي أنه يريد اجراء بعض التحاليل.. ويراها..

فرد اسماعيل أن الفكرة خطرت له.. ولكنه يفضل ابنة عزت جواد لا ابنة أخيه. وفوق ذلك لقد ذهب فعلاً ورآها.. وهي محجبة، الا أنها عندما تحتاج شيئاً من الرفوف العلوية في المختبر، فانها تستعمل سلما صغيراً تصعده بحضور أي زبون.. ويكون له فرصة النظر إلى ساقيها..

أجاب عاصم متعجباً:

ـ ماذا.. ان ابنة عزت جواد التي تريدها ليست محجبة، وانما تخرج مكشوفة الرأس.. اسمع يا اسماعيل، لا تحتج بالتديّن والحجاب أو عدمه.. قل انك تريد عزت جواد نفسه..

ـ في الواقع أريد مصاهرة عزت جواد نفسه، لا أي فرد من عائلة جواد.

ومما زاد اسماعيل رغبة في مصاهرة عزت جواد هو تعرفه بجمانة شخصياً.. اذ أن جمانة كانت كثيراً ما تأتي إلى محل زوجها في بعض أمسيات الأسبوع خاصة في الفترة الأولى لزواجها. وكانت تجتمع بأصدقاء زوجها وتشاركهم في جلساتهم المفتوحة على شتى الموضوعات. وكانوا يكتشفون فيها مزايا كثيرة إلى جانب كونها جميلة وكريمة الأصل.. كانت امرأة عصرية متفتحة.

لها رأي محدد في مختلف قضايا الحياة.. اجتماعية كانت أو سياسية.. كانت تختلف عن النساء اللواتي اعتادوا على رؤيتهم في بيوتهم.. هي نموذج مختلف.. جريئة في الاعلان عن رأيها.. إلى درجة يشعرون معها أنهم أمام شاب ناضج ند لهم، وينسون

أنهم أمام امرأة جميلة، قد يطيب للواحد منهم أن يتأمل في جمالها أو يسمعها كلمة اطراء.. حتى أن أحدهم واسمه عثمان، أصبح همه أن يستفزها، ويتسقط عثراتها في الكلام.. ويحاول أن يقلل من أهمية كونها تحمل شهادة جامعية.. معتقداً أن المرأة والزوجة خلقت للبيت فقط، لا يحق لها العمل خارج البيت، ويجب أن تتحجب حجاباً شرعياً.. وعلمها وشهاداتها فقط كي تعرف كيف تعامل زوجها وتربي أطفالها.

ترد عليه جمانة: معاملة الزوج وتربية الأطفال لا تحتاج إلى شهادات جامعية. فأمهاتنا وجداتنا كثير منهن عرفن كيف يربين أولادهن ويعاملن أزواجهن، وهن اللواتي أنجبن أبطال الوطن ورجالاته السابقين والحاليين.. على كل حال لا يدهشني موقفك هذا كثيراً.. فما زال بعض شبابنا يعيشون بعقلية القرن التاسع عشر.. كثير منهم ما زال يعاني من الازدواجية وانفصام الشخصية، وهذا ليس ذنبكم.. ولكن مع مرور الوقت ستحل كل الاشكالات.. فالتطور الاقتصادي لا سيما التصنيع، والحاجة إلى كل يد تعمل في هذا الوطن كل ذلك كفيل بتغير كثير من المفاهيم. وسوف يضطر الرجل والمرأة أيضاً إلى التسليم بفكرة

عمل المرأة.

وتستدرك جمانة.. كنت أظن أن هذه قضية تجاوزها الزمن، ولكنني أرى شبابنا المتعلم ، أو بالأحرى حملة الشهادات الجامعية والعليا لا زالوا يحملون هذه العقلية ويدافعون عنها.. الحمد لله أن عاصماً ليس مثلك.

ويستأنف عثمان قائلاً: بالنسبة لمسألة الحجاب، ألا تعتقدين أن على المرأة المسلمة أن تتحجب.

ـ لا يهم ماذا أعتقد، ولكن الحجاب هو استجابة لوازع ديني، وفي الوقت نفسه له وجه اجتماعي.. وفي هذه المرحلة من التاريخ العربي والاسلامي أرى أن الحجاب لم يعرقل قضية عمل المرأة، بل على العكس جاء وسيلة تحررية لكثير من النساء. فقد أعطاهن الثقة بالنفس.. والجرأة في طلب الخروج من البيت وممارسته.. على الأقل لحضور دروس الدين.. والتي كثيراً ما تعقد بعد صلاة الصبح.. لقد خرجت المرأة من البيت بعد أن كانت أسيرةً للاعتقاد السائد أن المرأة لا تخرج من بيتها إلا مرتين، مرة إلى بيت الزوج ومرة إلى القبر.

وخلاف جمانة مع عثمان بلغ نقطة اللاعودة، حين أعطاها

ذات يوم رواية لا حدى الكاتبات.. قائلاً ربما اذا اطلعت على ما جاء فيها تغيرين رأيك، وتعرفين أني على حق.

وعندما عادت ذلك المساء إلى البيت وحاولت أن تقرأ الرواية.. وتبينت أنها كتبت باسلوب سطحي جداً.. وكان انطباعها عنها أنها سخيفة شكلاً وموضوعاً.. استفزها تصرف عثمان جداً..

هذا كتاب بمستوى فتاة تجاوزت المرحلة الابتدائية بقليل.. من يظنني.. قالت لزوجها.. خذ هذا الكتاب وارمه بوجهه.. والله لن أجتمع بهذا الشخص أبداً.. ولن أستقبله في بيتي.. قل له ألا يأتي إلى هنا حتى للسؤال عنك من خلف الباب.

وفعلاً ظلت جمانة على موقفها ذاك من عثمان.. إلى أن تزوج.. وقد قبلت إكراماً لزوجها أن تزوره مع زوجها في بيته، لتهنئته بالزواج، كما حملت هدية معها لعروسه.. التي كانت كما أرادها تحمل شهادة جامعية ومحجبة ولا تعمل خارج البيت.. لقد تزوجها بعد أن اشترط عليها ذلك وقبلت شرطه.

- ١٥ -

عندما إنتقل عاصم وجمانة إلى البيت الجديد.. أصبحت زياراتها للمحل نادرة، وكذلك إجتماعها بأصدقاء زوجها.. وفي البيت الجديد كبرت مسؤولياتها.. إذ لم يعد بإمكانها التغاضي عن الواجبات الإجتماعية، أو عن إقامة الدعوات في بيتها للأهل والأقرباء، بحجة أن بيتها صغير، ولا يليق بإستقبال أحد.. وأيضاً مسؤولياتها تجاه ولديها كانت تزيد كلما كبرا أكثر فأكثر..

لم تشعر يوماً منذ تزوجت بعاصم أنّه قصّر عن تلبية طلباتها.. كل وسائل الراحة البيتية متوفرة.. ووسائل التسلية.. شيء واحد كانت تحلم به قبل الزواج، وهو أن يكون زوجها هو رفيقها في الزيارات الإجتماعية أو في النزهات مع الأولاد.. دائماً يقول: إذهبي أنت واعتذري لي..

كانت جمانة تحب منظر الزوج والزوجة وأولادهما مجتمعين

في مكان عام يروّحون عن أنفسهم في غذاء خارج البيت.. أو يتريضون في حديقة عامة.. ولكنّ عاصماً كان دائم التململ والتذمّر فيما إذا رافقها مع الأولاد إلى أي مكان بحجة أنّ الزيارات مضيعة للوقت.. ليس فيها إلا ثرثرة لا طائل تحتها..

في الواقع كان يحتج بهذه الأسباب لأنه يفضل الثرثرة مع أصحابه، والخروج معهم.. إذ ربما تعقب ذلك صفقة عمل.. كان مهووس عمل.. العمل متعته وحياته.. تمتعه جلسات الرفاق وتبادل الأحاديث ومشاركتهم الطعام سواء في المحل أو في مكان عام غالباً ما يكون في بيروت، حيث أصبح عمله يرتكز كلياً على السفر إلى بيروت، وعقد الصفقات التجارية.. على أن يستلمها في دمشق.. وقد توسعت تجارته وتوسعت دائرة معارفه.. وصار له عملاء من كبار تجار الكريستال في دمشق وبيروت وأوروبا... وأصبح يرى في نفسه رجل أعمال حقيقياً.. بل وأصبح كذلك بنظر كثير من أترابه في العائلة.. ليس فقط أترابه من شباب العائلة ومن هم في مثل سنّه، بل أيضاً بنظر من هم أكبر منه سنا.. من عمومته وأخواله.. صار يتحدث عن صفقات بمئات ألوف الليرات وأحياناً بالملايين..

وصار يحلم أنّه في غضون سنتين أو ثلاث سيتمكن من شراء بيت بأربعة ملايين ليرة في أحسن منطقة في البلد.. ويحلم بأنّه سيفتح مكتباً تجارياً، بل شركة.. تستخدم عدة سكرتيرات.. وموظفين.. تلفونات وتلكسات..

وتستمع زوجته إلى أحلامه..وهي بين المصدق والمكذب.. ربّما.. ولكن في عمله شيء غلط لا تعرف ما هو.. مع أنّه دائماً يطمئنها قائلاً: إن عمله يسير ضمن حدود القانون.. ليس فيه أية مخالفة.. إنني لا أتعامل إلا بالكريستال.. هل الكريستال ممنوع.. كل بيوتات البلد تشعشع بثريّات الكريستال.. والقناديل والشمعدانات.. لقد أصبحت خبيراً يستدعونني في المؤسسات الرسمية والجمارك، وكبار التجار أيضاً كي أصنف لهم الأنواع، وأحدد الأسعار..

وصار يستجيب بفرح لما تفرضه عليه زوجته من أناقة في المظهر، تتناسب مع ما آلت إليه أوضاعه..ويوماً بعد يوم مع اتساع اعماله، واضطراره للتغيب يومين او ثلاثة في الأسبوع.. صار يشتاق إلى أولاده وزوجته.. فأدخل بعض التعديلات على برامجه.. عندما يكون في دمشق، أصبح يقضي الأماسي بعد

إقفال المحل في البيت.. يساعد زوجته في إطعام الأولاد.. يتقاسمان العمل، هي تطعم الأكبر وتعدّه للنوم، وهو يتولى شأن الأصغر.. وبعد ذلك يعدّان لنفسيهما طعام العشاء ويتناولانه في أثناء مشاهدة برامج التلفزيون..

وإن لم يكن هناك برنامج يعجبهما يضعان فيلماً في جهاز الفيديو.. وقد يشاركهما في سهرتهما هذه بعض الضيوف من الأهل والأقرباء.. هند وحازم، أو خلدون وزوجته.. أو الخالة وداد التي تأتي لزيارتهما بين وقت وآخر وتقيم عندهما أسبوعاً أو أسبوعين حسب التجلّي.. وكذلك من زوّارهما ناديا وأولادها وخاصة بناتها.. أمّا العم سليم فهو لا يزور أحداً إلا في المناسبات الخاصة جداً، كمجيء أخيه الكبير عزت من بيروت، أوحضور عقد قران أحد أبناء أو بنات إخوته وأخواته.

تلك الأمسيات كانت تضفي على جمانة شعوراً بالسعادة والفرح، وتشعرها أنها إنسان له كيانه وإعتباره.. ولكن ذلك لا يجسّد طموحاتها.. فهي تريد أن تكون إنساناً له إعتباره في دائرة أوسع.. وذلك لن يتحقق لها إلا بالعمل وممارسة المهنة التي درستها..

أحلامها تدور في حدود طاقاتها. هي لا تحلم بالمستحيلات، بل تزن كل عمل تنوي القيام به، فتحسب مردوده المادي والمعنوي، ثم تقدم عليه.. بالنسبة لمسألة العمل، فهي تعرف أنها متعلّقة جداً بولديها، ولا تستطيع أن تتركهما في رعاية أحد أبداً إلا عاصماً، حتى أنها تستغني عن حضور أية مناسبة إجتماعية وإن كانت عرساً، إذا كان عاصم لا يستطيع أن يتفرغ لهما في وقت غيابها.. تتخيّر دائماً الزيارات والأماكن التي يمكنها اصطحابهما معها.

مسألة العمل بالنسبة لها، مسألة مؤجّلة ريثما يصبحان في سن المدرسة وهذا الموعد لم يعد بعيداً. سيكون في مطلع الشتاء القادم.

ريثما يحين الموعد ما عليها إلا الإنتظار.. ولكنها لم تضيع الوقت. فقد بدأت تعدّ العدة منذ الآن للعمل، فبدأت بنبش أوراقها الثبوتية وشهاداتها.. فقد مضى على تخرجها حوالى خمس سنوات وأكثر.. وراجعت ما تحتاج منها إلى التصديق، فهي سورية الجنسية ولكنّ شهاداتها كلها لم تحصل عليها من سورية، بل من لبنان. فكل الأوراق يجب أن تكون مصدقة

من وزارة التربية ومجلس التعليم العالي ووزارة الخارجية اللبنانية.. وصارت تستغل سفر زوجها إلى بيروت بين وقت وآخر لكي يحمل الأوراق إلى بيروت حيث تقوم أختها سحر بتنفيذ هذه المهمّات. وتحتفظ بها لكي يحملها عاصم في سفرة قادمة..

وفي أثناء إنتظار جمانة عودة الأوراق الموقّعة، كانت تعدّ صوراً عن المقالات التي نشرتها في صحف بيروت في أثناء فترات التدريب وتستعيد الذكريات..

وفي ليلة كانت تقضي السهرة مع زوجها في البيت منفردين، وقد أعلنت مذيعة التلفزيون أن السهرة ستكون مع فيلم أبي فوق الشجرة لعبد الحليم حافظ..

جمانة وعاصم كلاهما من المعجبين بعبد الحليم، وأغانيه خاصة.. أسرعت بإرسال ولديها إلى الفراش، كي تستمع بمشاهدة الفيلم مع زوجها بهدوء.. ووضعت وسادتين على السجادة.. واحدة فوق الأخرى، كي تبقي رأسها مرفوعاً بشكل تستطيع فيه متابعة أحداث القصة، والإستمتاع بالأغاني، وهي مستلقية على ظهرها ومسترخية.. فيما جلس زوجها على كرسي

خشبي هزّاز.. وكان كل شيء يسير هادئاً عادياً، وفجأة سمع عاصم صوت بكاء جمانة، الذي أخذ يعلو حتى أصبح نحيباً.. لم يقل شيئاً بل تركها تبكي ما شاء البكاء.. ثم قام بهدوء، وذهب إلى المطبخ وأعدّ فنجانين من القهوة وأحضرهما.. قائلاً:

– هيا إنهضي.. روّحي عن قلبك واشربي فنجان القهوة هذا..

نهضت جمانة متثاقلة.. ولم تستطع أن تنظر في عيني زوجها إلا بعد فترة.. انتظر عاصم حتى فرغا من شرب القهوة.. وقال لها:

– هيا أخبريني ماذا خطر في بالك.. هل منظر البحر.. ومنظر الشباب والصبايا مع أغنية دقوا الشماسي.. أهاج ذكرياتك..

سكتت.. ولم تقل شيئاً، بل رفعت نظرها إليه وإبتسمت.. قال عاصم:

– هل تذكرت أيام الجامعة.. أخبريني ما القصة..

وكانت جلسة مصارحة شاملة. حدّثته عن هاني إبراهيم وقصتها معه وحدّثها عن سميرة الطالبة الجامعية التي كانت الحب

الحقيقي الوحيد الذي سكن أعماقه وترك بصماته على جدران القلب، ولم تؤثر في مكانته أن صاحبته رفضت الزواج منه لأنه غير جامعي..

كل من جمانة وعاصم لم ينكر أن الآخر ليس حبّه الحقيقي والأخير.. ولكن كل منهما يشعر في أعماقه أن ما يجمعه مع نصفه الآخر الذي قسمه الله له شيء أكبر من الحب الذي تعارف عليه الناس، وقرأوا عنه في الروايات.. شيء أكبر من كل ما في الدنيا.. شيء رحماني وشيطاني معاً.. كل منهما يعطي الآخر كل ما عنده وأحلى ما عنده، فيشعر أحدهما مع الآخر بالإمتاع والإشباع، بشكل لا يدع زيادة لمستزيد.. ويشعر أن الآخر هو نصفه الحقيقي حسب الأسطورة التي تقول إن الله سبحانه وتعالى في البدء خلق الكائنات نفوساً متشابهة ترتع في أرجاء السموات.. وعندما أراد أن يعمّر الأرض بالحياة والأحياء، أخذ كل نفس من هذه النفوس وشطرها قسمين، أحدهما الذكر والثاني الأنثى، وقذف النفوس كلها إلى الأرض، وتبعثرت الأنفس في طول الأرض وعرضها، وأخذت كل نفس تبحث عن نصفها. فمن عثر على نصفه الأصيل عاش سعيداً، ومن عثر

على نصف آخر غير النصف الأصلي عاش تحت رحمة الظروف التي تقرب أو تباعد بين النصفين المختلفين أصلاً..

كان كل من عاصم وجمانة يعتقد أن الآخر هو نصفه الأصيل.. إلا أن جمانة كان يضايقها أحياناً التلميحات التي تأتيها من هنا وهناك.. وأكثرها من أهل زوجها أمه.. أخته..زوجة أخيه.. تقول هذه التلميحات أن سفر عاصم المتواصل لبيروت ليس للعمل فقط بل للمتعة أيضاً..فهو يغيب يومين أو ثلاثة هناك.. ولا بد أنه له علاقات وصداقات ومن يعلم ربما أكثر.. وكانت جمانة تدافع عنه وعن علاقتهما الحميمة وعن إخلاصه.وهي تعتقد أنه حقيقة مخلص لها.. وهذا ما يؤكده لها، وينكر أن يكون لسفره غاية أخرى غير العمل..وكانت هي تصدّقه..وتقول لنفسها: إنكاره دليل إحترام لي ولمشاعري.. لن أحاصره بالأسئلة، ولن أضايقه كي أعرف الحقيقة.. الحقيقة بالنسبة لي هو ما يقوله ويعترف به صراحةً.. وإذا كان يكذب، فذلك لشعوره بعدم الرضى عما يفعله. والفرق كبير بين من يرتكب الخطأ ويحاول الدفاع عنه وتبريره وتحويله إلى فضيلة.. وبين من يرتكبه مضطراً.. فيحاول إخفاءه والتستّر

عليه.. فهذا سيحمله في المستقبل علي تجنّبه لكي يحقق لنفسه سلاماً داخليا ًواستقراراً نفسياً.. فلا شيء يشوّش فكر الإنسان ويرهق ضميره كالكذب والتظاهر بما ليس فيه..

مع أن جمانة تصدّق زوجها، وهي مقتنعة بإخلاصه، إلا أنها بحاجة إلى إثبات ذلك للآخرين من الذين يعرّضون به وبها وبعلاقتهما الزوجية بين وقت وآخر.. وإذا كان دليل الإثبات غير متوفر لظروف عمله.. فهي تتمنى أن تسنح لها فرصة تبدو فيها أن لها عالماً خاصاً بها.. وأنها فعلاً مختلفة عن غيرها من الزوجات اللواتي يقضين حياتهن بإنتظار الزوج العائد مدعياً الإرهاق من العمل في الوقت الذي يكون فيه قد مزج بين المتعة والعمل وبين التسلية وكسب العيش..

فالعمل وحده سيسكت ألسنة السوء، وسيضطرون للمقارنة بين حياتهن وحياتها، وبين أزواجهن وزوجها الذي لن يستمر طويلاً هانيء البال مطمئن القلب، يسرح ويمرح في أرض الله الواسعة.. وهو يعلم أن زوجته تتعرض للإغراء تماماً كما يتعرض، وأن عليه أن يحمي نفسه وأن يكون لها قدوة تستضيء بها في حماية النفس.

في الحقيقة لم يكن عمل جمانة يسبب أية مشكلة بالنسبة لعاصم.. بل على العكس إنّه يحبّذ الفكرة ويؤيدها، وإن كان لا يبدي تلهّفاً على تحقيقها.. بل يترك الأمور تسير طبيعية دون إفتعال وفي الوقت المناسب.. عندما تكون جمانة مستعدة لها نفسياً.

وهو أيضاً متعلّق بأولاده مثلها تماماً.. لذلك فالهم الأول لهما أن يبلغ إبناهما سن المدرسة.. لذلك عندما قررا أن يسجّلا الولدين بالمدرسة إعتباراً من مطلع السنة القادمة.. وصادف أنّه تعرف بشخص يمكنه مساعدتهما عجّل بإخبارها كي تكتب المعلومات الذاتية عنها: سنّها، وشهاداتها ووضعها العائلي مع ذكر كافة مؤهلاتها. وتولّى هو تقديم الطلب لوزارة الإعلام بواسطة الشخص الذي تعرف به.

* * *

بدأت جمانة وأختها هند تستعدان لموسم صيف ١٩٨٢.. ففي الصيف يتقاطر المغتربون في البلاد العربية الأخرى، مصر، والسعودية، والكويت، ودول الخليج، يتقاطرون إلى دمشق،

ينشدون قضاء إجازاتهم في ربوع الوطن وبين الأهل والأصدقاء... كل عائلة من أقاربهما لا تخلو من أبناء مغتربين، إمّا كل بمفرده أو هو عائلته.. وعادة يكون بيت الخالة وداد في بلودان مفتوحاً لكل أبنائها وبناتها، وأبناء وبنات إخوتها وأخواتها.. فالزائرون يتوافدون ما إن ينتهي فوج من زيارته حتى يحل محله فوج آخر..

وهي مع كبر سنّها ما زالت تحتفظ بنشاطها وحيويتها. وقد أصرّت منذ وفاة والدها على أن تستأجر سنوياً بيتاً في المصيف.. كي تسطيع أن تمارس دورها القيادي في العائلة.تدعو من تريد.. وتقوم بواجب من تريد.. لا أحد يحاسبها ولا يشاكسها.. ففي دمشق لا يمكنها أن تثقل على كنتها ولا على إبنتها وصهرها، وتحيل بيت أي منهما إلى مضافة للحماة.. تستقبل ضيوفها وتقيم ولائمها.. فيه.

وأصبحت دارة الخالة وداد في بلودان قبلة أنظار الجميع سواء في عائلتي زوجها وأبيها أو عائلات كنائنها وأصهارها..

فالمغترب عن دمشق عندما تتاح له فرصة حضور إحدى ولائمها أو زيارة دارتها في عطلات نهاية الأسبوع، يعدّ نفسه

سلفاً للقاء كل من يحب لقاءه من الأهل والأصدقاء، وكل من لم تتح له فرصة الإجتماع به منذ سنوات.. فكانت هذه الدارة ملتقى الأحباب ومجمع المتباعدين..

وكان أكثر من يهمّ الخالة وداد من أبنائها المغتربين وبناتها إبنتها الصغرى هيام،آخر العنقود، فكانت تعجّل في تحضير بيت المصيف، وتهيئة المؤونة له قبل مجيئها إلى دمشق مع زوجها حسام وبنتيها الصغيرتين حيث تقضي شهراً أو شهراً ونصف الشهر حسب مدة إجازة زوجها.

وكانت جمانة تحب أن تستضيف أخاها «حسام» وزوجته بضعة أيّام في منزلها فهو رفيق طفولتها وصديقها وأقرب إخوتها إلىّ نفسها، إلا أن زوجته متعلّقة بوالدتها جداً وتفضل ألا تفارقها مدة بقائها في سورية، وكانت ككل البنات تستأنس بأهلها أكثر مما تستأنس بأهل الزوج.. وكانت هيام خاصة ترتاح لصحبة بنات أختها ناديا اللتين لا تفارقان بيت جدتهما طيلة الصيف.

الخالة وداد ترحب أكثر ما ترحب بصبايا العائلة، وذلك لأن الصبايا عماد الولائم الحاشدة. فعليهن يقوم عبء العمل.

رغم أن الطعام يأتي جاهزاً مطبوخاً، وغالباً ما يكون الصفيحة الشامية، هي عبارة عن رقائق من العجين بيضاوية الشكل بحجم الكف، مغطاة باللحمة المدقوقة والمبهرة والمخبوزة في الفرن.. ومعها فطائر بالسبانخ وفطائر بالجبنة.. وقد يرافق هذه أيضاً الفراريج المشوية إلى جانب اللبن والسلطة.. ومع ذلك يبقى العمل بالنسبة للصبايا متعباً ولكنه لا يخلو من التسلية والمزاح ورمي النكات.. وأحياناً يعلو صياح المشاجرات.. من إشتغل أكثر، ومن إشتغل أقل.. ويبدأ التعيير.. فلانة أذنٌ من طين وأذنٌ من عجين.. وفلانة يا قوم لست منكم.. وهكذا.

كانت جمانة تحب الإجتماع بالأهل، وخاصة بأخيها حسام وزوجته وبنتيه. ولكنها لا تستطيع المبيت والإقامة أياماً في بلودان كما يفعل غيرها، بل تذهب في زيارة لساعات محدودة ثم تعود إلى بيتها.. وهي لا تستطيع المشاركة بالأعمال الجماعية خاصة منها البيتية.. ولا تحب أن تدخل في منافسة أو مقارنة مع أحد.. وعندما يكون الجمع حاشداً، والزائرون كثراً، كانت جمانة تهرب من العمل، وينطبق عليها المثل القائل: يا قوم لست منكم. مما حدا مرة بناديا أن قالت لعاصم: ما هذا زوجتك. لا تساعد

أحداً، على الأقل في غسيل الأطباق.

فيردّ عاصم قائلاً: تريدين من زوجتي أن تجلي الصحون.. إن زوجتي صحفية، والتي تمسك القلم بيدها لا يمكن أن تمسك الليفة والصابون..

– هكذا أنت وزوجتك وافق شن طبقة.. وتستأنف قائلة الآن هي ربة بيت مثلنا، لم تعمل بعد..

فيجيبها عاصم: ولو.. لكنها ستعمل في المستقبل القريب، إن شاء الله.

في الواقع جمانة تعرف نفسها ومقدرتها.. هي لا تستطيع التحرك بسرعة.. تحب أن تأخذ كامل وقتها.. وأن تحوّل ما تقوم به من أعمال، أي عمل مهما صغر شأنه، إلى متعة ذاتية.. فهي عندما تقوم بعملية الجلي ولو في بيتها، وحتى قبل أن تتزوج.. كانت تحسن هندامها، وتسرّح شعرها.. وتتأكد من زينة وجهها.. ثم تحمل معها المذياع الترانزيستور إلى المطبخ.. وتديره على أغنية جميلة.. وترتدي المريلة والكفوف كي تجنب يديها الحساسية التي يسببها الماء والصابون.. وتبدأ عملية الجلي.

هذا الوضع لن يتيسر لها عندما تكون في بيت خالتها، والدار حاشدة.. والصبايا العاملات أو القادرات على العمل كثيرات.. فإن جهودها ستكون ضائعة وتوترها النفسي عالياً.. لذلك كانت تتجنب الزيارات الطويلة خاصة وأن زوجها بحكم عمله وتغيّبه يضطر إلى عدم مرافقتها أو المبيت معها هناك.. مع أنه هو أكثر المموّلين لنفقات الصيف.. ومطالب الوالدة.

- ١١ -

انتهت عطلة الصيف.. كان هذا الصيف حاراً وعصيباً.. فكرت جمانة.. إجتمعت فيه كل المتناقضات المرح والتسلية مع التعب والإرهاق.. والشعور بالأمان إلى جانب الرعب والهلع والخوف من المجهول.. إجتياح اسرائيل للبنان وإحتلالها للعاصمة بيروت.بيروت مدينتي الحبيبة، مرتع الصبا والشباب تغتصب وتدنس.. شيء لا يحتمله العقل ولا الضمير.. ولكنه حدث.. الذي خفف من وطأته قليلاً، علينا أنا وهند هو نجاة أهلنا.. وقدومهم إلى دمشق.. وبقدومهم تحولت بيوتات الاهل والاقارب الى نوادي استقبال وصالات أفراح.. إحتفاءاً بسلامتهم وخروجهم من الجحيم.. ولكن ذلك لم يمح صور المآسي التي رأيناها على شاشات التلفزيون.. لقد حُفرت على حدقات عيوننا.. فقد كان الإجتياح والمجازر التي ارتكبت بحق سكان بيروت والمقيمين بها وسكان المخيمّات هو موضوع كل

الإجتماعات العائلية..كنّا نتألم فقط في محاولة للتكفير عن عجزنا عن أن نفعل أكثر من الألم ولو من بعيد..

تتابع جمانة حديث النفس: يبدوأن هذه السنة سنة نحس علّي..

لم أكد أطمئن على عودة أهلي بالسلامة إلى بيتهم.. وكذلك سفر إخوتي سعيد وحسام مع عائلتيهما.. ورحت أمنّي النفس بأيام هادئة وأعصاب مرتاحة تساعدني كي أنتبه قليلاً إلى مدرسة الأولاد..حتى رأيت نفسي أقذف في مجهول آخر لا أعرف كيف ينتهي.. هذا الذي حدث مع عاصم كنتُ أتوقع حدوثه منذ زمن.. أشعر أنّه قادم.. ولكن كيف ومتى لا أعلم... والآن وقع ما كنت أخشاه وصار همّاً ملء القلب ودمعاً ملء العين..

كانت الأفكار تضج في رأس جمانة وهي مستلقية على سرير خالتها في بيت سلفها خلدون، تتوسط ولديها. في ليلة كابوسية طلع الصبح عليها ولم يغمض لها جفن..

عدة طرقات خفيفة على الباب كانت كافية لتجعل جمانة تنتصب واقفة من سريرها.. أسرعت لفتح الباب.. كانت الخالة وداد التي بادرتها قائلة:

– صباح الخير جمانة.. كيف حالك.. إن شاء الله نمت..

– من أين لي النوم..الحمد لله على كل حال.

–أيقظي الأولاد، وتعالوا جميعاً.. فقد حضّرت سلفتك طعام الإفطار.

– والله أشعر بصداع.. ولا أجد رغبة لي بطعام ولا بشراب.. ولكن هل من الضروري أن أوقظ الأولاد.. لن أرسلهم إلى المدرسة اليوم، ونحن هنا خارج بيتنا.. والله أشعر أن حياتي إنقلبت رأساً على عقب..

–صلّي على النبي.. ما بعد الضيق إلا الفرج.. بدأت أقرأ لعاصم ألفيّة قل هو الله أحد.. عسى الله أن يأخذ بيده ويسّر له كل أمر عسير.. هيا أحضري الأولاد وتعالي.. فالطعام ينشّط الخلايا ويرمّ العظام ويهدىء الأعصاب.. وبعد ذلك نرى ماذا تمّ بشأن عاصم.. وتنهّدت قائلة الله يحميه ويكون معه..

وفاضت عينا الخالة وداد بالدموع.. وبكت جمانة أيضاً.

رغم تحفظات جمانة على بعض تصرّفات خالتها، وخاصة تشجيعها لعاصم على السفر والمخاطرة بنفسه وبمستقبله،

وبركوب الصعب في سبيل الكسب السريع.. إلا أنها تشعر أن خالتها تكاد تكون الوحيدة التي تشاطرها ألمها الحقيقي لأنها أم.. وجمانة لا تشك لحظة بمشاعر الأم نحو أولادها...

عندما أصبحت جمانة أمّاً، ولمست شدة تعلقها بولديها وخوفها عليهما حتى من مّس النسيم العليل عرفت حقيقة شعور أبويها وزاد تعلّقها بهما أكثر فأكثر.. وصار همّها أن تجنبهما أي شعور بالقلق تجاههما على الأقل.. لأنها لا تملك أمر إخوتها ولا تستطيع أن تحملهم على أن يحذوا حذوها.. وذلك ما دفعها بإصرار إلى إخفاء قصة عاصم وخبر توقيفه عنهما.. وأصبح ذلك موضوع مشادّة بينها وبين حماتها الخالة وداد التي تصرّ على أخبارهم:

هم أهلك وأولى الناس بمساعدتك، ومساعدة زوجك أليس صهرهم.. إذا لم يقفوا بجانبك وقت الشدة متى سيقفون..

وتردّ جمانة بانفعال:

نعم صهرهم.. وأنا ابنتهم.. ولكن هل يعني هذا أن أرمي ثقل أخطاء زوجي عليهم.. لم يمض على سفرهم يومان أو ثلاثة.. أي أنهم يستقرّوا بعد في بيتهم..

تجيب الخالة: هذه قسمة ونصيب.. والأصول تقضي باخبارهم.. هل تريدينهم أن يعلموا من الغرباء.

– يا خالتي أنا أعرفهم أكثر منك.. ولا أريد إرباكهم.. ولا إحراجهم.. فهما الإثنان لم يعودا في سن تسمح لهما بالسفر المتواصل.. وطريق بيروت تعرفينيه كم أصبح وعراً وطويلاً.. وحواجز على الطرقات وانتظار على الحدود.. وإذا افترضنا أنهما لم يأتيا شخصياً بل أرسلا سحر عوضاً عنهما.. هل تريدينهما أن يظلا وحدهما هناك.. رجل وامرأة مسنّان.. سحر هي المعين الوحيد لهما والتي يمكنهما الإعتماد عليه والإطمئنان له.

– والله أنا قلت رأيي.. أعتقد أن إخفاء الأمر عنهم تقصير منك بحقهم..

– يا خالتي على كل حال ما زالت المسألة في أولها، وما زال الوضع غامضاً وعاصم الآن رهن التحقيق في مبنى الجمارك. ربما تنتهي المسألة بأسهل مما نتصور. فقد يصالح على البضاعة وينتهي الأمر بثلاثة أيام. على كل حال سأذهب مع خلدون لأزوره. أعتقد أن رؤيته لي قد تشجعه وتشعره أنني أقف إلى جانبه.

كانت جمانة حريصة على أن يشعر عاصم بوقوفها إلى جانبه.. لأنه يعلم شدة معارضتها لطريقة عمله.. أجل هي تعارضه قبل الوقوع بالمشكلة من باب التنبيه والسعي للأفضل.. ولكن ما دام وقع فمن واجبها كزوجة أن تكون إلى جانب زوجها.. فهي تنشد الشعور بالأمان.. وهي لا تطلب الكثير من أمور الحياة المادية ولا تهمها مظاهر البذخ والترف.. إلا بالقدر الذي لا تضطر معه إلى مكابدة القلق والخوف.. والارتماء في أحضان المجهول.. المهم أن تكون وسائل الراحة اليومية والحاجات الأساسية متوفرة بشكل معقول يفي بالحاجة إلى جانب بعض وسائل التسلية والترويح عن النفس.. هذا يكفي ما دام الطريق واضحاً والخطوات مدروسة.. هي لا تحب أن يفاجئها أحد بما لا تتوقعه، تزعجها المفاجأة حتى ولو كانت سارة..

حملت جمانة أفكارها وهواجسها ورافقت سلفها خلدون إلى مبنى الجمارك بغية رؤية عاصم والاطمئنان على أحواله.. وتركت ولديها في عهدة جدتهما.. هذه أول مرة تقترف إثماً كهذا بحق ولديها..

عندما وصلت إلى المكان ظنّت أن المسألة هيّنة ليّنة كما تراها

في الأفلام. ما إن تحمل إذناً بالدخول حتى تفتح الأبواب بوجهها.. فعلاً هي استطاعت الدخول من الباب الرئيسي لأنها تحمل إذناً بالدخول، ولكنّ المبنى كبير ومترامي الأطراف.. يعجّ بالموظفين والمراجعين والموقوفين.. ومستودعات للبضائع المصادرة.. موقوفون من مختلف المهن.. ومختلف المستويات.. بضائع منوّعة.. وقضايا لا تعد ولا تحصى.. والمحامون يحملون أوراقهم ويركضون من غرفة إلى أخرى..

رأت جمانة نفسها في عالم غريب لم تعرفه من قبل.. ولم يخطر في بالها أنها ستقف على بعض خفاياه من الداخل.. على كل حال هي تتمتع بحس الصحافي وفضوله، ولعل هذا ما دفعها إلى الإصرار على الذهاب رغم معارضة سلفها خلدون قائلاً: هذا مكان لا يليق بالنساء، وخاصة نساء العائلات المحافظة من أمثالنا.. أرجوك يا جمانة.. هل تريدين أن تزيدي فضيحتنا فضيحة...

– إذا لم تأخذني معك سأذهب وحدي.. افرض أنني أعمل صحفية وألاحق أخبار القضايا الجنائية وغيرها..ألا يجدر بي أن أدخل أماكن كهذه.. لا تخف لن أزعجك..

في داخل المبنى قالت جمانة لخلدون: أنظر إلى أولئك النساء.. إنهن موقوفات ويبدو أنهن من عائلات محترمة.. مظهرهن يدلّ على ذلك. وتابعت قائلة: كنت تعارض بمجيئي.. المكان مليء بالنساء.. ممّ كنت خائفاً..

ردّ قائلاً: إنهن يعملن بالتجارة.. تجارة الألبسة الجاهزة.. انظري هذه.. محلها قرب محلّي في شارع الحمرا.. ألبسة جاهزة من أوروبا بدون فواتير قانونية.. فوق ذلك هن نساء موقوفات.. هل أنتِ مثلهن!

علقّت جمانة: موقوفات.. أو موقوفون ما الفرق.. كله توقيف. وتابعت قائلة: والآن سنرى عاصماً أين هو.. كلّما نذهب إلى مسؤول يقول إنهم يحققون معه في غرفة أخرى..

استطاعت جمانة أن ترى عاصماً خلال نافذة إحدى الغرف المصطفة على جانبي دهليز طويل وعريض.. في بناء من ثلاث طبقات. كان في الأصل ثكنة عثمانية.. ثم جدد بناؤه وطلاؤه واحتفظ بالشكل الهندسي المعروف للثكنات العثمانية...

وقفت مع خلدون وحازم، زوج أختها،الذي وصل منذ

قليل.. ينتظرون خروج عاصم علّهم يستطيعون الحديث معه. خرج عاصم.. رأته.. وقد اصفرّ وجهه ونحل قليلاً عن ذي قبل،.. عيناه غائرتان من التعب والإرهاق بين سين وجيم.. لم يُسمح لهم بالإقتراب منه.. انتهى أمره بالنسبة للجمارك.. أدلة النفي لم تكتمل.. ولا يستطيعون الإحتفاظ به أكثر من ثلاثة أيام.. اليوم آخرها. أحيلت أوراق عاصم إلى النيابة العامة..

لم يتمكّنوا إلا من سماع صوته يأتي عالياً: لا تنسوني.. تابعوا القضية.

أسقط في يد خلدون وجمانة وحازم.. وقع المحذور.. وتعقدت القضية.. هناك دعوى قضائية.. يلزمه محام ونفقات.. كل ذلك لم يكن في الحسبان.

إلى أين أخذوه؟ سألت جمانة ورنّة اليأس والقنوط في صوتها.

أجاب حازم: إلى القلعة.

في تلك اللحظة تمنّت جمانة لو أنها لم تره. كانت تتنازعها عواطف شتى. فهي تشعر أن هذا الدرس كان ضرورياً لعاصم، كي يجعله يقلع عن المخاطرة وسلوك الطرق الملتوية حتى ولو

كانت متسترة بنصوص القانون.. ومن جهة أخرى تشعر أنها مشرّدة هي وأولادها.. ولا تعرف ماذا تفعل.. فكرت أن عليها أن تسرع بملاحقة إجراءات توظيفها في وزارة الإعلام.. على الأقل كي تؤمن مصروفها ومصروف أولادها اليومي.. لأنها لا تعرف إلى متى ستستمر هذه الأزمة.. وأما نفقات الدعوة وما يتبعها فسوف تتدارس الوضع مع خلدون..

عندما عادت جمانة إلى بيت سلفها خلدون وجدت أن ناديا، زوجة عمّها هناك. جاءت بصحبها وحيويتها لتسأل عن أخبار عاصم وتطمئن عليه.. وأيضاً لتعلن أنهم جاؤوا وفتشوا بيتها.. قائلة: الحمد لله أن ليس عندي شيء.. في الحقيقة سبق لعاصم أن أودع عندي بعض صناديق الكريستال.. ولكنه عاد وأخذها.. فمن أين لهم أن يعلموا.. لابد أن هناك مكيدة.. تبليغاً متعمداً أو أن الشرطة تراقبه منذ مدة طويلة..

ساد الصمت برهة.. ثم قالت الخالة وداد موجهّة كلامها إلى إبنتها ناديا:

– هل سمعت.. لقد نقلوه إلى القلعة وأحيلت أوراقه إلى النيابة العامة.

هنا إلتفتت ناديا إلى جمانة وطلبت منها أن تأتي هي والأولاد لعندها. لأن ناديا هي الأقرب لها.. فالبيت بيت عمّها وهي أخت زوجها وعمة الأولاد.. وافقت جمانة على ذلك.. وانتقلت مع الولدين إلى بيت عمّها..

صار بيت العم سليم ندوة إجتماعات.. فمنه تنطلق المحادثات الهاتفية والإتصالات بمن يلزم لتحديد الخطوات العمليّة في متابعة قضية عاصم والسعي لحلها..

كان الرأي الإتصال بابن أخيه المحامي ودعوته للمجيء لعندهم.. كي يأخذوا رأيه ويروا إن كان بإمكانه أن يتولى هو القضية أو يقترح أحداً غيره.

وصل الأستاذ أيمن، وهو إبن عم جمانة وأحد أصدقاء عاصم. كان في سنوات الدراسة من المداومين على حضور جلسات محل الديكور في شارع بغداد وكذلك المحل الجديد في السبكي.. وقد أصبح محامياً ناجحاً. إفتتح مكتبه منذ مدة قصيرة.إستطاع خلالها أن يقنع الكثيرين من زملائه المحامين وأصحاب الدعاوى عل السواء بقدرته وكفاءته، وأن مستقبلاً

مرموقاً في عالم المحاماة ينتظره، وصل إلى بيت عمّه سليم حيث إجتمعت العائلة.. وقد أبدى عتبه أنهم طلبوا منه المجيء عوضاً أن يقوموا بزيارته في المكتب.. فالمكتب هو مكان عمله.. ولكن لا بأس فنحن أهل.. وقد أتيت من أجل خاطر بنت عمي جمانة.. لأرى ما يمكنني عمله.

شكرته جمانة، وسألته إن كان يستطيع أن يتولى هو نفسه القضية. أجاب بأنه هو متخصص بالقضايا العقارية.. أمّا الجمارك فكثير منها تجبر من يتولاها من المحامين على أن يسلك أساليب لا يقبل أن يسلكها من يخشى على سمعته وعلى أخلاقية المهنة...

فقال خلدون: ماذا تقصد... ما العمل الآن، نحن قصدناك لأنك قريبنا.. والأقربون أولى بالمعروف. أجاب الأستاذ أيمن: سأدلّكم على محامٍ يتولى هذه القضية وهو ضليع.

كانت الساعة تقارب منتصف الليل عندما انفض الجمع على أن يلتقوا في الغد ويكون أيمن قد اتصل بالمحامي المناسب.

ذهب خلدون وحازم وأيمن كل إلى منزله.. وبقيت جمانة في بيت عمّها تحاول أن تبتلع ليلة أخرى من التشرّد.. فكرت

أنهم لطفاء عمّها وزوجته وأولادهما، وهم متعاونون ويبذلون أقصى ما عندهم في التسرية عنها ومساعدتها، ويسرفون في رعاية ولديها وتدليلهما..! ولكن كل ذلك لم يخفف عليها وقع المصيبة، ولم يذهب شعورها بالضياع.. هذا الشعور الذي حاولت إخفاءه بكثير من مظاهر التماسك والقوة.. حتى أنها لم تتوان عن أن تعلن بصراحة وبالفم الملآن أنها ضد طريقة زوجها بالعمل.. التي كنتم أنتم تشجعونه عليها.. المهم أن تشاركوه ويأتيكم بالربح، وأنتم جالسون في بيوتكم.. وهو الذي يحرث طريق بيروت جيئة وذهاباً وغياباً عن البيت عدة أيام في الأسبوع..

قالت الخالة وداد: أصبح الحق علينا.! وطلباتك هل نسيتها.. أنت بنت العزّ.. معتادة أن تكون أغراضك من بيروت.. حتى الخبز والجبنة وأحياناً اللحمة لا تقبلين إلا أن تكون من بيروت..خبز الشام لا يعجبك.. الأولاد يفضلون جبنة كيري..محارم الورق من بيروت.. حتى حفاضات الأولاد من بيروت..

قالت جمانة: تريدين أن لا أستفيد شيئاً من سفره وغيابه

وتشرّده على الطرقات.. تريدين أن تكون حصتي فقط القلق والخوف والعذاب..

توقفت برهة وعادت تنفجر كمن تذكر شيئاً:

– وأنت نسيت طلبات بيت الصيفية.. أليست كلها من بيروت.. هيام معتادة في جدة على أنواع معينة.. أرجوك عاصم أحضر معك كذا وكذا من أجل أختك هيام.. أنسيت كل ذلك.

وهنا تدخل العم سليم: يا جماعة. طوّلوا بالكم.. نحن في أي شيء الآن.. اتركوا العتب جانباً.. أنتما الإثنتان تتكلمان بهذه العصبية من شدة الحزن على هذا الواقع المرّ الذي إنتهينا إليه.. فإحداكما أمّه، والثانية زوجته، وأنتما أقرب الناس إليه، وما خلافكما هذا إلا ردّة فعل طبيعية.. طوّلوا بالكم.. ستفرج إن شاء الله ..

في هذه الأثناء قرع جرس الباب الخارجي في بيت العم سليم، وجاء خلدون ليعلن أن المحامي الذي نصحهم به الأستاذ أيمن قال إنّه بعد الإطلاع على حيثيات القضية بوضعها الحالي وبعد إعتراف عاصم بأن كل البضاعة المصادرة هي ملكه..

حصر المسؤولية به وحده، ولن ينقذه من ذلك إلا الإدعاء بأنه إشتراها من تجّار دمشقيين.. دون التأكد من أن رسومها الجمركية مدفوعة أم لا.. وبما أن القانون لا يحمي المغفّلين فتظل المسؤولية قائمة، وهذه القضية حكمها السجن ثلاث سنوات، وقد تخفف بالإستئناف فتصبح سنتين وربما سنة..

أسقط في يد جمانة والخالة وداد، وخيّم الوجوم على المجتمعين. قالت جمانة: ما العمل الآن؟ ألا من طريقة؟ أجاب خلدون: يقول المحامي: إذا إستطعنا إقناع التجار الذين إشترى منهم البضاعة بأن يأتوا إلى المحكمة ويقرّوا بأن عاصماً إشترى منهم البضاعة دون أن يعرف شيئاً عنها سوى نوعها وثمنها.. فمن الممكن حينئذ أن ترتفع المسؤولية عن عاصم.. ويصبح كل ما عليه هو أن يدفع غرامة تحددها المحكمة.. بنسبة قمية البضاعة المصادرة..

سألت الخالة وداد: وهل يخرج من السجن الآن؟

– لا لن يخرج حتى تنتهي المحاكمة ويصدر القاضي حكمه بأنّه غير مذنب وبانتفاء المسؤولية عنه.

سألت جمانة: والبضاعة هل سترد إلى عاصم.

أجاب خلدون: لا.. وإنما ستباع بالمزاد العلني.. ولكن المهم الآن أن يرضى التجار الإقرار بمسؤوليتهم..

قالت جمانة: ما الذي يؤخرهم عن الإقرار، كلهم شركاؤه..

– صحيح. هم شركاؤه، ولكن يجب أن يبرزوا إيصالات رسمية بأنهم دفعوا الرسوم الجمركية المطلوبة.

– وهل هذا صعب عليهم، كلهم تجار، ولهم معارف من أصحاب النفوذ، ويمكنهم أن يدبّروا الإيصالات.

قال خلدون: صحيح.. ولكن ذلك كله يأخذ وقتاً طويلاً، والصبي يبقى في السجن ينتظر فرج الله ..

– المهم أن يخرج غير مذنب.. وتكون هذه الحادثة درساً له في المستقبل..

وإستأنفت جمانة الكلام كمن تذكر شيئاً: إتصل بأصدقاء عاصم، فصديقه عبد الرحمن طالع نازل بين بيروت ودمشق.. عسى يستطيع أن يستحصل على فواتير من تجار بيروت الذين يعرفهم..

نظر خلدون إلى الساعة، وقال: قاربت منتصف الليل.. عليّ أن أذهب الآن.. فزوجتي لا بد أن تكون قلقة، ولن تستطيع النوم حتّى أعود..

والتفت إلى جمانة قائلاً: غداً، إن شاء الله، أتصل بعبد الرحمن، وأرى ما يمكننا عمله.

في اليوم التالي بعد تناول طعام الإفطار، وذهاب كل فرد من أفراد عائلة العم سليم إلى عمله أو إلى مدرسته.. جلست ناديا وجمانة تشربان فنجانين من الشاي.. وإذا بالباب يقرع.. وكانت القادمة هند شقيقة جمانة.. عندما وقعت عيناً جمانة على هند لم تتمالك نفسها فأجهشت بالبكاء.. وتعانقت الأختان طويلاً.. ولاذت النسوة الثلاث بالصمت.

بعد ذلك قطعت هند حاجز الصمت الثقيل وقالت: جئت لآخذك معي. والتفتت إلى زوجة عمّها ناديا قائلة: إذا سمحت.

وبعد أخذ وردّ واعتراض سمحت ناديا للأختين بالإنصراف.

- ١٣ -

السيّارة تشق طريقها متهادية في شوارع دمشق. جمانة وهند تجلسان في المقعد الخلفي.. ترقبان الأبنية والأشجار التي تتراجع بسرعة كلّما تقدمت بهما الطريق.. كان أوتوستراد ركن الدين وجهتهما..

قالت جمانة: جميل هذا الأوتوستراد.. يذكرني بكورنيش البحر في بيروت ولكن عوضاً عن الأزرق الداكن الذي يتصل عند الأفق بالأزرق السماوي يمتد هنا الأخضر الزيتي حتى يلامس الأفق.. دعينا نوقف السيّارة هنا ونقطع المسافة الباقية إلى البيت سيراً على الأقدام.

قالت هند: ولكن حقيبتك وحقيبة الأولاد... لن تستمعي بالسير وأنت مثقلة بالأحمال...

قالت جمانة: ليت كل الأحمال كهذه الأحمال... تعرفين أن

رياضة المشي تساعد على إستعادة التوازن النفسي.. وتعين على التفكير السليم.

– عندما نصل الى البيت نضع الحقيبتين.. ونتمشى قليلاً.. أتذكرين.. في الفترة الأولى لزواجك، بعد مجيئك إلى دمشق.. لم نترك زاوية في شوارعها الجديدة لم نحاول اكتشافها..

– سقى الله تلك الأيّام.. ما كنت أدري ما تخبئه الأيّام.

– لا تقولي ذلك.. كل شيء سينتهي، إن شاء الله، إلى خير.. عسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم.. هل تمّ معك شيء بخصوص الوظيفة والعمل...

– ألا ترين ما نحن فيه.. لقد قدم عاصم لي الطلب منذ مدة، ولكن لم ألاحقه.. ولا أظن أنه سيكون لدي وقت، الآن، لذلك. فعليّ أن أهتم بقضية عاصم..

– وما شأنك أنت! هذا عمل الرجال.. دعي الأمر لأخيه خلدون وأصحابه، وأيضاً زوجي حازم فهو مثل أخيه.. أنت ما عليك إلا حثّهم على العمل، وتذكيرهم بين وقت وآخر..

ردّت جمانة: لو رأيت عاصماً عندما صرخ لا تنسوني.. لقد تقطّع قلبي.. واسودّت الدنيا في عيني حتى خلت أنه سيغشى عليّ وأنا هناك بين كل هذه الجموع.

– رأيي أن تهتمّي الآن بصحتك، وألا تفقدي أعصابك.. فالأولاد بحاجة لك.. وأفضل ما تقومين به هو أن تتخذي خطوات عملية في حصولك على عمل.. فالعمل سيفيدك مادياً ونفسياً..

– إذن تحدثّي مع سلفك الأستاذ فهو له معارف في الدوائر الرسمية،كي يجري إتصالاته مع الوزارة ويحاول تأمين مقابلة مع الوزير أو مع مدير مكتبه.. فالطلب قد رفع إليه من قبل مدير مكتبه السابق..

مضى النهار هادئاً. سعت هند فيه أن تبعد أختها جمانة عن كل ما يوتّر أعصابها. وطفقتا تهتمان بإعداد الطعام.. فموعد الغداء بات قريباً. وسيعود حازم من عمله، ويأتي بولديه من المدرسة في طريق عودته. وفيما هما تنهمكان بالعمل حيناًوتثرثران حيناً آخر، قالت هند: في رأيي أن تشرعي بإرسال الأولاد غداً إلى المدرسة فهم في مدرسة واحدة مع أولادي.. ولن يكون

السّماعة ويضعونها لكي يسمعوا الرنين المتقطع، وربمّا لا يحكمون إعادتها فتظل مرفوعة، ويظل الخط مفتوحاً.. وإذا إتصل أحد بهم يجد أن الخط مشغول دائماً..

قال: لا أحد يجيب ربما ليسوا في البيت.. ولكن لابأس سأمر عليه في المساء قبيل عودتي.. إطمئني ست جمانة.. طلباتك أوامر..

إبتسمت جمانة وتذكرت مناكدتها له.. وتصرّفها معه وكأنها حماة فعلية.. وإن كان ذلك مشوباً دائماً بالمزاح ولا يحمل طابع الجد.. مع أنها تدرك في أعماقها أن الحكمة الشعبية التي تقول في الضحك والمزاح تشتفي الأرواح.. ليست قولاً عبثياً.. إلا أنّ ما يقال في معرض المزاح يسهل التراجع عنه ومناقشته وحتى نسيانه.. بعد أن يكون قد ترك بعض الأثر.أمّا ما يقال في معرض الجد فيبقى وشماً لا تمحوه الأيام. إن خيراً فخير وإنْ شراً فشر.

إستيقظت جمانة في اليوم التالي وهي أبهج نفساً، وشرعت مع شقيقتها تؤدّيان المهام الصباحية. وقد أفعم صدرها بأمل

وحبور لم تعرف لهما مثيلاً منذ أيام عديدة.. أرسلتا الأولاد إلى المدرسة، ولملمتا البيت وخرجتا إلى الطريق في نزهة صباحية سيراً على الأقدام، تذرعان الرصيف العريض الممتد إلى جانب أوتوستراد ركن الدين والمطل على بساط أخضر كثيف.. في الواقع لم يكن مرجاً ملتصقاً بالأرض بل شجراً عالياً، ولكن كونه منخفضاً عدة أمتار عن مستوى الطريق يجعله يلوح وكأنّه بساط أخضر يندلح على إمتداد البصر.. وعلى الطرف الآخر من الطريق تمتد سلسلة من العمارات الحديثة المتلاصقة... وتنتشر في أسفل العمارات دكاكين البقالة والخضار والألبسة والصيدليات..

جمانة وهند تسيران بخطى متناغمة وئيدة.. كان الجو يميل إلى البرودة، وقد إرتدت كل منهما معطفاً قصيراً خفيفاً من الصوف. ومع كون الجو بارداً إلا أن الهواء كان ينساب كالموسيقى العذبة.. حتى السماء بدت أشد زرقة وصفاء.. إن الأحوال النفسية والأفكار الخاصة تمارس سلطانها على مظاهر الأشياء الخارجية.. ليس مخطئاً ذلك الإنسان الذي يرى كل شيء كئيباً وقاتماً.. ولا ذلك الذي يرى الأمور عكس ذلك.

لم تدر جمانة لِمَ تشعر أنها اليوم أبهج نفساً.. أكثر نسبياً من ذي قبل.. فالوضع العام الذي يكتنف حياتها لا يبعث على البهجة مطلقاً.. ولكن الأشياء الصغيرة التي يقوم بها المرء والأفكار الطارئة التي ترد على خاطره تصرفه عن واقعه بعض الشيء.. تفتح له ثغرات الأمل فينعكس ذلك على مشاعره.. والعمل العضلي أيضاً يريح العقل.. علماء النفس يقولون إن الوقت الذي يصرفه المرء بالعمل الجسدي، يتوقف فيه العقل عن التفكير.. يأخذ قسطه من الراحة.. والأعصاب تتخلص من التوتر والإضطراب. يظهر ذلك عندما يستأنف المرء التفكير بمشكلاته بعد فراغه من العمل العضلي ويلمس سلامة الأحكام التي يعطيها بعد هدوء الأعصاب وسكون التوتر.

عندما رجعت جمانة إلى البيت مع هند بعد نزهتهما الصباحية، أخبرت هنداً أنها أحسن حالاً.. وأن باستطاعتها الآن أن تعيد تقويم حياتها.. فهي الآن أمام طريق مجهول النتائج.. فلتحاول أن ترسم خطاً آخر تدرس كل خطوة فيه، وتعتمد على نفسها.. هذا الخط هو خط العمل. فلا شيء يشعر المرء بالأمان قدر سقف خاص يستظل به، وقدر حصوله على مورد رزق

ثابت لا يهم قليلاً كان أو كثيراً.. ساقية جارية ولا نهر مقطوع.. وحصاة تسند جرّة...

عاد حازم في موعد الغذاء مع الأولاد.. وبادر جمانة بقوله: تهانينا.. موعدك بعد غد، إن شاء الله، في الساعة العاشرة والنصف قبل الظهر.

لم تصدق جمانة في أول الأمر، وشعرت بالرهبة.. لقد أصبح الأمر جدياً ليس مجرد كلام.. أو أماني تداعب الخيال.. يتوهم المرء فيها أنه يعمل.. وتمتص بدورها الإندفاع.. بدأت الأمنية أولى خطواتها في طريق التحقيق..

هرعت جمانة إلى صلاة شكر قصيرة.. وقضت بقية نهارها في حالة إنعدام وزن، هكذا وصفت شعورها لأختها.. امتصت الفرحة كل مشاعر اليأس والقنوط.. وبددت مشاعر الاحباط.. ولكنها لم تهزّها أو توترها.. غرقت في مرحلة إنتظار يشوبها قليل من الذهول لم يخرجها منه إلا قرع الجرس في حوالي العاشرة ليلاً.. ورؤية أختها سحر واقفة بالباب مع ليلى زوجة السيد نبيل..

ما هذا النهار..؟! بادرت جمانة أختها وهي تعانقها: لا شك أن هذا النهار هو نهار سعد، فأنا منذ الصباح أحس ببهجة غير عادية.. رغم الظروف غير الطبيعية التي أعيش فيها....

ذهبت ليلى بعد تناولها القهوة معهن.. وعندما استقرت سحر في البيت نظرت حولها.. قائلةً في نفسها: أية بهجة هذه.. شعرت سحر أن البيت ضيّق على سكانه.. أربعة أولاد صغار وثلاثة كبار، والآن تضاف هي إليهم فيصبح المجموع ثمانية.. أين ستنام هي.. لقد قضت أكثر من خمس ساعات في الطرقات.. سفر، وحدود، وطائرة، وأمن عام، ومسافات طويلة، وخيبات أمل..

لم تفصح سحر عن مشاعرها، وقد فسّر الوجوم البادي على محياها بالسفر والارهاق الذي جعل عينيها غائرتين في محجريهما.. ومع ذلك ظلّت الأخوات الثلاث ساهرات إلى ما قبل بزوغ الفجر.. تتبادلن الأحاديث، وتقلّبن وجوه المشكلة.. وبعد أن تبلغت سحر بكل التفاصيل، طمأنت جمانة أن الوالد والوالدةيفضّلان أن تأتي مع الأولاد للإقامة عندهما في بيروت في هذه الفترة. وهو أيضاً لن يدخر وسعاً في تلبية أية نفقات تلزم للقضية.. إلا أن جمانة لم تقبل فكرة الذهاب إلى بيروت

بل فضلت أن تبقى على مقربة من زوجها، لكي تحثهم على العمل في سبيل إنقاذه..

عند ذلك إقترحت سحر على جمانة أن ترجع إلى بيتها.. ما دامت القضية لم تنله بسوء.. حتى المحل لم يغلق بأمر رسمي وإنما برغبة ذاتية.. هكذا اقترح خلدون ووافقته جمانة على ذلك، فالبيت والمحل خاليان من أية بضاعة غير قانونية.

في اليوم التالي غادرت سحر وجمانة وإبناها بيت هند.. ولم تنس هند عند الوداع أن تذكّر جمانة بموعد الغد.. وأكدّت لهما أنهما ستتصل بهما للإطمئنان.. وقد تزورهما غداً مساء لتعلم ما تمّ في المقابلة المرتقبة.

عادت جمانة إلى البيت.. سبعة أيام بلياليها قضتها خارج البيت وفي ظروف صعبة. لم تدر حينها ماذاتفعل.. شعرت بكره مفاجيء للبيت ورغبت في الخروج منه. ولم يخطر في بالها أنها ستعود.. حسبت خروجها خروجاً لا رجعة بعده. وقد أخبرت أختها سحر فيما بعد أنها لولاها لما فكرت بالعودة السريعة.. وقالت لها إذا لم تفعلي شيئاًبمجيئك إلى دمشق سوى تشجيعي على العودة إلى البيت لكفى.. لا شيء يُشعر الإنسان بالأمان إلاّ البيت الخاص الذي يستره ويحميه ولا يثقل فيه على أحد..

أول شيء قامت به جمانة عقب عودتها إلى البيت هو أن إتصلت بسلفها خلدون وخالتها هاتفياً وأخبرتهما أنها عادت إلى البيت وأن أختها سحر جاءت من بيروت.. ثم قامت بعد ذلك بجولة في المنطقة حول البيت إشترت فيها بعض الخضار والفاكهة والخبز.. لوازم الحياة اليومية.. وفي الوقت نفسه أرادت من هذه الجولة في المنطقة أن تعوّد نفسها على الجو بعد غياب زوجها، وتكسر طوق الرهبة.. وجدت كل شيء يجري بشكل طبيعي وعادي.. لم يلتفت إليها أحد.. فأدركت أن الرهبة تنشأ من الداخل من المشاعر الشخصية نحن نتوهمها ونحسبها حقيقة قائمة.. ولكن عندما نواجه الآخرين ونرتمي في خضم الحياة اليومية نكتشف أن لا أحد يعير إلتفاتاً لرهبتنا.. نعرف حينئذ الحجم الحقيقي لهذه الرهبة..

صادفت جمانة الجار أبا محمد في طريق عودتها.. فبادرها قائلاً:

– الحمد لله على السلامة.. وحاول طمأنتها عن وضع عاصم فقال إن كثيرين يحدث معهم ما حدث مع عاصم، ويعودون أحسن مما كانوا. ثم قال لها: إذا أردت زيارته في القلعة أستطيع

الحصول على إذن لك.. فوافقت على الفور..

في المساء جاء خلدون وزوجته والخالة وداد ومعهم ناديا.. جاءوا لتهنئة سحر بسلامة الوصول، وللإطمئنان عن وضع جمانة والأولاد.

كان في جعبة جمانة كثير من الأخبار.. أولها أنها ستزور عاصماً في القلعة، وثانيهما أنها ستباشر منذ الغد إجراء معاملات الوظيفة.. وأخذت موعداً لمقابلة مديرة مكتب الوزير..

شعرت الخالة وداد بغصة مرّة تلسع حلقها.. فكّرت: يبدو أنها نسيته.. أختها عندها، وأهلها معها.. وها هي تستعد لحياة جديدة.. وكأن لا همّ عندها..

إلتفتت جمانة إلى خلدون وسألت عما تمّ بشأن القضية، هل إعتمدتم محامياً معيناً؟

أجاب خلدون: هناك المحامي الذي أشار به إبن عمّك الأستاذ أيمن وهذا المحامي يرى أن القضية ليست معقّدة جداً، وكل ما في الأمر أن على بعض التجار من أصدقائه أن يقرّوا بأنه إشترى البضاعة منهم بينما هو لا يعرف ظروفها، فإذا تمّ هذا

الأمر فإنّه سيعتبر غير مسؤول، وما عليه إلا دفع الغرامة بعد مصادرة البضاعة.

قاطعته جمانة قائلة: لقد اخبرتني ذلك قبلاً، ألم يحصل شيء جديد؟

تابع خلدون وكأنه لم يسمعها: وقد تنجو البضاعة من المصادرة فيما إذا أبرز التجار إيصالات بقيمة البضاعة كي يصار إلى تقدير رسومها الجمركية..

قالت جمانة لو كان عاصم غير موقوف لاستطاع الحصول على إيصالات رسمية من تجّار بيروت..

قال خلدون: هنا نصل إلى حل آخر.. فهناك محام آخر يعرفه عبد الرحمن قال إن باستطاعته الآن إخراج عاصم بكفالة ومن ثم يهرب إلى الأردن، ومن هناك إلى الخليج أو السعودية حيث يستطيع أن يعمل ويسدد للتجار ثمن البضاعة المصادرة.. وبعد ذلك تتبعينه أنت والأولاد..

إنتفضت جمانة كمن مسّه تيار كهربائي وقالت: نعم.. ويبقى مطارداً ولا يستطيع العودة.. هو الوحيد بين إخوته آثر

البقاء في البلد والرضى بحلوها ومرّها.. وبعد ذلك تريدونه أن يعيش مطارداً ومحروماً من العودة إلى بلده.. أنا لا أقبل، ولن أتبعه.. أنا هنا.. سأبقى في بيتي وسأعمل ولن أتغرّب أبداً.. على كل حال سأزوره خلال الأيّام القادمة.. ولاّ أعتقد أن فكرة الخروج بكفالة والسفر إلى الخارج ستعجبه..

كانت سحر تجلس مستمعة صامتة.. ترقب ما حولها.. إنفعالاتهم.. حركاتهم.. صياحهم.. وتدرك أن جمانة هذه تستطيع التعامل مع مشكلتها بحنكة.. دون مساعدة أحد..

قال خلدون بينما الخالة وداد تصادق على كلامه بهزّات من رأسها:

-إن الطريقة الأولى التي تعتمد على إقرار التجار تأخذ وقتاً طويلاً، وسيبقى هو في السجن ريثما نجد من يرضى أن يقرّ بذلك، ومن ثم الحصول على الإيصالات بأثمان البضاعة... كل ذلك سيأخذ وقتاً طويلاً، ربّما يمتد أشهراً.. وأيضاً -

قاطعته جمانة: مهما إمتد لكنه سينتهي ولن يضطر إلى البقاء خارج البلد بإعتباره هارباً ومطارداً بسبب سفره بينما تم إطلاقه

بكفالة، ريثما تنظر المحكمة بقضيته.. الخطأ يجرّ الخطأ يكفينا خطأ واحد.. وأنّا لن أتغرب معه ولن أغادر البلد.. وإذا لمست عنده أدنى رغبة في ذلك فسأحاول أن أثنيه عنها. وسأعلمه بقراري عندما أزوره.

سكتت جمانة قليلاً ثم إستأنفت كلامها كمن تذكّر شيئاً ذا بال:

– ولكن.. ما دام يستطيع الخروج بكفالة فليخرج وليبق في البلد.. لماذا المغادرة والهرب..

– لأن الكفالة ليست قانونية مئة بالمئة، وإنمّا ملفقة.

قالت جمانة وقد نفذ صبرها: أيضاً.. مخالفة أخرى وخطأ آخر..

إكفهرّ الجو، وخيّم الوجوم على المجتمعين.. وساد صمت ثقيل قطعته ناديا قائلة: ما بكم يا جماعة.. لا تعقّدوا الأمور.. أنا أرى أن ما تقوله جمانة هو الأحسن على المدى البعيد.. لذلك لا تستعجلوا الأمور.. إصرفوا النظر عن مسألة الخروج بالكفالة هذه.. وسيروا بالدعوة سيرا طبيعياً.. وحاولوا أن تجدوا من

التجار من يشارك في حمل المسؤولية..

قال خلدون ورنّة التسليم في صوته: لا بأس كما تريدون.. كل ما في الأمر أنني أردت التعجيل بإخراجه وإطلاق سراحه.. فهو يستطيع التحرك أكثر من أي منّا، ويعرف أصحاب العلاقة.. وبإمكانه الضغط عليهم..

في الواقع كان خلدون يريد إطلاق سراح أخيه بأي ثمن.. فهو يشعر بمسؤولية كبيرة تجاه عائلة أخيه.. مسؤولية أثقلت كاهله الذي ينوء أصلاً بحمل هموم عائلته الخاصة.. وزوجته وأمّه وأربعة أولاد وأعماله التي تعطلت ولو جزئياً.. ولكنه أذعن أمام إصرار جمانة.. خاصة وأنها قالت: إذا تمّ هذا الأمر فلن أتبعه ولن ألحق به.. أتعرفون ماذا سأفعل.. سأترك إبني عاصم في عهدتكم فأنتم أهلهما، وسأقفل عائدة إلى بيت أهلي في بيروت ولن تروا وجهي بعد الآن..

بعد ان إنفضّ الجمع، وغادر القوم إلى بيوتهم إلتفتت سحر إلى جمانة قائلة: ما هذه المسرحية التي مثّلتها عليهم!؟

أجابت جمانة وإبتسامة النصر في عينيها: طبعاً.. وماذا تظنّين

بي.. كان علّي تخويفهم.. أأتركهم يقرّرون مستقبلي ومستقبل زوجي وأولادي.. ولماذا.. لكي ترجع لهم أثمان البضاعة التي شاركوا بشرائها.. إذا كان تصرف عاصم خطأ.. فسيكون السجن ولو على ذمة التحقيق درساً مفيداً له.. وبعدها يخرج.. ونستأنف حياتنا بشكل عادي.. أنا لا أريد أن يكبر أولادي في بلد غريب.. أريدهم أن يشعروا بالإنتماء والولاء لوطنهم.

قالت سحر دعينا الآن ننم بعد هذا اليوم الماراثوني..

تابعتها جمانة: معك حق خاصة وأن غدا لديّ موعداً، عليّ أن أستعدّ له.. وأن أذهب، على الأقل، مرتاحة الأعصاب.

***

نظرت مديرة مكتب الوزير بطرف عينها وقالت لجمانة:

– نعم أخت جمانة ما هي القضية..

تنحنحت جمانة قليلاً ثم قالت: لقد رفعت طلباً للوزير منذ سبعة أشهر تقريباً، حمله له مدير مكتبه السابق.. من أجل الحصول على وظيفة في الوزارة..

– منذ سبعة أشهر، وحتى الآن لم تسألي عنه!

– في الواقع، أنا الآن واقعة في ورطة، وإنني بحاجة للوظيفة.. فزوجي تاجر.. وقد أوقف في الحملة الدائرة حالياً ضد التجار..

وإندفعت جمانة وتابعت كلامها بعصبية: وكأنها جاءت للحديث عن قضية زوجها ونسيت ما جاءت من أجله، فقالت:

– أرجو أن تبلّغي الوزير أن زوجي ليس من التجار الكبار، الذين يربحون الملايين..إنّه تاجر متوسط، وليس عنده مدّخرات، ما يكسبه يصرفه.. تتركون الكبار يسرحون ويمرحون وتطبّقون القانون على الصغار..

– ردّت المديرة بسرعة: لا.. لا أسمح لك بهذاالكلام.. القانون يطبق على الجميع، ويساوى بينهم.

وإستأنفت كلامها بعد لحظة: ما إسم زوجك؟

– عاصم عبد الباقي

قالت المديرة: إذا كان زوجك بريئاً فسينصفه القانون، إطمئني.

في هذه الأثناء كانت المديرة قد عثرت بالطلب الذي قدمته جمانة.. وقالت: عجيب.. حتى الآن لم تسألي عنه إنّه موقّع منذ زمن طويل.. هل كنت تنتظرين أن نركض وراءك.. كان يجب أن تسألي قبل الآن.. ثم أردفت قائلة: هل أحضرت معك صوراً عن بطاقتك الشخصية وشهاداتك؟

أجابت جمانة بالإيجاب، وناولتها الظرف الذي كانت قد أعدّته قبلاً..

تصفّحت مديرة المكتب الأوراق.. وعندما رأت صورة الشهادة الجامعية ونماذج من المقالات والتحقيقات التي أعدّتها في أثناء فترة التدريب.. تغيّرت نظرتها إلى جمانة، وبالتالي تغيّرت لهجتها معها.. قالت لها:

– الذي أعلمه يا أخت جمانة أن باب الوظائف مغلق حالياً، وليس هناك مسابقات للتعيين.. على كل حال أرجو أن تنتظري قليلاً..

ثم حملت الأوراق، ودخلت غرفة الوزير، وهي مجاورة لغرفتها لا يفصل بينهما إلا الباب الذي دخلت منه.. غابت بعض الوقت.

عندما عادت بادرتها قائلة: ما رأيك ما دام باب المسابقات مغلقاً، أن تبدئي بالعمل بموجب عقد، في إحدى صحف القطاع العام أو القطاع المشترك، وعندما تعلن عن أية مسابقة للوظائف تشتركين بها، وإذا نجحت تثبّتين وتصبحين ضمن ملاك الموظفين..

قالت جمانة: عظيم.. والآن ماذا عليّ أن أفعل؟

أجابت المديرة: الآن تذهبين إلى بيتك.. وتنتظرين زيارة من مندوب مخابرات الحزب، موكل بجمع المعلومات عنك، ومن ثم يجري معك مقابلة.. وبعدها تتم إجراءات التعيين..

تغيّر وجه جمانة وإمتقع لونها.. وبانت مشاعر الخيبة في ملامحها. فبادرتها المديرة قائلةً: ما بك؟ هذه الإجراءات كلها شكلية.. ولكن تأكدي أن تعيينك سيحصلُ بدون تأخير.. لأن موافقه الوزير قد أعطيت.. والموافقة على الطلب قد أُنجزت..

غادرت جمانة المكان، وسارت في الطريق تعّب الهواء عميقاً، وتحسّه يتغلغل في شرايينها وفي كل مسامات جلدها.. وقالت لنفسها: ها قد إنتهت المقابلة.. خطوة على الطريق.. وأرتمي في براري الإنتظار من جديد.. لا بأس.. وصلت إلى البيت كانت

سحر بانتظارها ترافقها هند التي وصلت بعد مغادرتها المنـزل بقليل.. بادرتها بلهفـة:

– كيف جرت الأمور؟

– لا بأس..

قالت هند: لا يبدو عليك الإنشراح..

لم تذكر لهما تفصيلات حديثها عن قضية زوجها.. وإنمـا قالت: لقد وقع الوزير طلب الوظيفة.. والموافقة الكلّية قد تمّت.. ولكن علّي إنتظار مجيء مندوب مخابرات الحزب.

قالت سحر متعجبة: الحزب، ولماذا الحزب.. أنت لست حزبيّة..

أجابت: إنها إجراءات شكلية.. هكذا قيل لي.. والتعيين مؤكد وكل ما بقي هو إجراءات روتينية..

وتابعت جمانة قائلة: هل إتصل أحد في أثناء غيابي؟

أجابت سحر: أجل لقد ذكّرتني.. جاء أبو محمد، جاركم..

ثم نهضت سحر من مكانها وإتجهت إلى حيث يقع جهاز التلفزيون.. وأخذت ورقة بيضاء موضوعة على ظهره وتابعت قائلة: وأعطاني هذه الورقة.. وقال إنها إذن لزيارة عاصم.

نظرت جمانة إلى الورقة وقالت: ليست بإسمي شخصياً.

– لا.. ولكن يمكن لحاملها أن يجتاز باب القلعة.. وقـد سألته إن كنت أستطيع مرافقتك فأجاب أن بإمكانها إصطحاب من تشاء.

قالت جمانة: ولكني لا أعرف المكـان..

إنبرت هند قائلة: أنا أعرفه.. نطلب من السائق أن يوصلنا إلى باب الجابية ومن هناك أنا أعرف الطريق جيداً. ثم إلتفتت هند إلى جمانة وتابعت قائلة: قبل أن تتزوجي أنت وتأتي إلى دمشق.. كانت نجاة، سلفتي، تقوم بمهمة مرشد سيـاحي لي في دمشق.. وكنا نقوم بجولات كثيرة في الحارات الشعبية حتى حفظت تشعبّاتها وفروعها.. وصرت أعرف مداخلها ومخارجها وأقصر الطرق المؤدية إليهـا..

قالت سحر: عظيم متى نذهب؟

أجابت هند: غداً أكون هنا في حوالي التاسعة.. ونرجع باكراً قبل عودة أولادي من المدرسة.

قالت جمانة: إتفقنا..

ما كادت هند تغادر البيت.. وتتجه جمانة إلى المطبخ لتعد طعام الغذاء لها ولأختها وللأولاد حتى رنّ جرس الهاتف، وكان المتحدث عبد الرحمن صديق زوجها.. أخبرها أن هناك محامياً يستطيع إستلام قضية عاصم وإخراجه برئياً غير مذنب.. لكنه يريد مبلغ أربعين ألف ليرة، على أن ندفع مقدماً عشرين ألف وعند خروج عاصم ندفع له البقية.. وهو لن يذهب لمقابلة عاصم والحصول على توكيله الرسمي إلا إذا قبض مقدّم المبلغ.. فالجلسة ستعيّن قريباً جداً، وعليه أن يستكمل أوراقه القانونية، ليحضر الجلسة معه، ويترافع عنه. فوعدته جمانة أنها ستدبّر الأمر.

بعد أن أغلقت السمّاعة إلتفتت إلى أختها سحر وأخبرتها ما دار بينها وبين عبد الرحمن وسألتها إن كان الوالد يستطيع أن يؤمن المبلغ. أجابت سحر بالإيجاب. فقالت جمانة: إذن سأتصل بإسماعيل صديق عاصم.. وهذا أحواله ميسورة وأظن أنّه لن

يتأخر.. خاصة إذا أخبرته أنّك هنا وستحضرين المبلغ من بيروت خلال مدة قريبة جداً..

سارع إسماعيل إلى تلبية طلب جمانة واثقاً من وعدها الأكيد أن أختها سحر التي تقوم بزيارتها في هذه الآونة، ستذهب خصيصاً إلى بيروت لإحضار المبلغ والعودة خلال ثلاثة أيام على أبعد تقدير..

قال اسماعيل: اذن، انا، في المساء سأذهب إلى عبد الرحمن، وندهب سوياً إلى المحامي وبحضور الأخ خلدون، وندفع له المبلغ.. إطمئني أخت جمانة ستنتهي القضية إلى خير، إن شاء الله.

- ١٣ -

السجن.. القلعة..

مكان.. لم يخطر لسحر أنها ستجتاز عتبته في يوم من الأيام.. كانت هند تسبق أختيها بخطوتين أو ثلاثة باعتبارها المرشد والدليل.. كان النهار مشرقاً رغم برودة الجو.. فكرت سحر أن السير في هذه الأماكن الشعبية ليس مزعجاً.. رغم أنها تعج بسيارات الهوندا والسوزوكي التي تستعمل لتحميل البضائع من وإلى الدكاكين المصطفة على جانبي الطريق.. دكاكين تحوي كل أنواع البضائع.. دكان للأقمشة إلى جانب آخر للأدوات المنزلية.. إلى جانب محل سنكري.. ودكان للمبيّض.. وقد تناثر بين زاوية وأخرى ماسح أحذية أو مجلخ اتخذ له ركناً بين دكانين، أو تقدم إلى ما قبل منتصف الطريق بقليل لكي يعترض المارة.. ولم تقلع سحر عن عادتها، فكانت تسأل عن أثمان البضائع للاستطلاع.. ومن ثم تسرع خلف أختيها اللتين سبقتاها بمسافة

ليست بالطويلة، بينما وقفت هي تتفحص البضائع، وتنتظر أجوبة لأسئلتها.

وصل النسوة الثلاث إلى مدخل القلعة.. قوس من الحجر المرصوف.. لم يكن تحته باب حديدي كما كان يخيل لسحر.. بل طريق حجري.. عرضه متران يمتد الى جانبه سوران حجريان يرتفع كل منهما الى علو مترين ونصف تقريباً ربما أكثر.. لا سقف له إلا السماء..

أبرزت جمانة الورقة.. نظر إليها الحارس الواقف إلى جانب المدخل.. وأومأ لهن بالدخول.. سرن وسرن.. اجتزن عدة منعطفات والطريق يمتد مع السورين بالعرض نفسه والارتفاع نفسه.. يبدو أن الطريق لن ينتهي.. وأخيراً وصلن الى ساحة ليست بالكبيرة جداً.. ارتفع في جنباتها بعض الأشجار.. وكان هناك بعض الحرس بلباسهم الخاكي.. تقدمت جمانة من أحدهم تستفسره الى أين يجب أن يتجهن فأومأ الى جهة مقابلة.. يبدو أن هذه الغرف هي غرف استراحة الحرس وأماكن نومهم.. وأخيراً وصلن الى ضالتهن.. كان هناك كثير من الناس متجمعين، ينتظرون أن يلتقوا بمن يخصهم من السجناء... كان هناك باب

حديدي كبير أسود يتوسط حائطاً حجرياً، ويقوم الى جانبي الباب بابان آخران صغيران أسودا اللون.. سألت سحر أحد الواقفين في الباحة:

متى يمكننا أن نرى السجناء.. قال لها: هل سجينكم من التجار؟ أجابت بالايجاب.. فقال ونحن كذلك.. وتابع قائلاً أكثر الموقوفين هنا هم من التجار الذين قبض عليهم في هذه الحملة الأخيرة..

ودون أن تسأله شيئاً.. تطوع بإخبارها بأنه قدم من اللاذقية اليوم خصيصاً ليرى قريبه الذي أوقف في اللاذقية وجيء به الى دمشق.. ثم قال: هل أنتم من دمشق؟ أجابت سحر: نعم.

توقفا عن الحديث.. فقد جاءت سيارة ميني - باص، فتح بابها الخلفي وأنزل منها شخص.. يبدو أنه قروي.. لف رأسه بغطرة ملونة بيضاء وحمراء، كلح لونها.. أحول العينين.. صرخ الحارس: إفتح الباب للمحكوم..

شعرت سحر أن سكيناً تخترق أحشاءها.. فتح الباب الكبير وسمعت صريره يصم الآذان.. وأدخل المحكوم وأغلق الباب

خلفه... أصوات تدمدم.. اللهم سترك يا رب.. اللهم لا تمتحنّا..

قاربت الساعة الثانية عشرة ظهراً.. قالت هند: سأترككما الآن.. لا يمكنني البقاء أكثر من ذلك.. يجب أن أكون في المنزل قبل الواحدة موعد عودة الأولاد.. وافقتها جمانة وحثتها على الإسراع.

بعد نصف ساعة تقريباً.. فتح الباب للزوار.. خلف الباب كان هناك فسحة سماوية، إرتفع بينها وبين الباب الرئيسي سور من القضبان الحديدية السوداء، مدببة الرؤوس.. كان السجناء يقفون في الفسحة خلف القضبان.. دخلت جمانة ترافقها سحر مع الداخلين.. شعرت سحر برهبة.. ماذا لو أغلق الباب خلفها ولم يفتح.. أبعدت هذا الخاطر عن رأسها.. ودارت بنظرها بين السجناء.. رأت عاصما يتقدم نحو سور القضبان.. تهلل وجهه.. قال: سحر هنا! متى جئت... من ثلاثة أيام.. مد يده من بين القضبان.. المسافة بين قضيب وآخر ليست ضيقة.. وصافح كلا منهما... كان يرتدي ملابسه العادية،وكل السجناء كذلك.. فكرت سحر.. لا يبدو عليهم أنهم سجناء كاللذين نراهم في

الأفلام السينمائية.. أخبرهم عاصم أن المحامي قد جاء في الصباح وأخذ توكيلا رسمياً منه.. اطمأنت جمانة أن الأمور تسير في خطها الصحيح.. لم تتبادل مع عاصم إلا كلمات قليلة... المهم أنها رأته.. وسألته إن كان يشكو من شيء أو إن كان يحس بالبرد.. عنده حساسية شديدة ضد البرد تسبب له ألماً بالرأس.. وسألته إن كان يريد شيئاً خاصاً ترسله له.. طلب أن ترسل له ملابس داخلية، وأن يتابعوا ملاحقة القضية.. لاحظت جمانة شدة تأثره عندما طمأنته عن ابنيهما.. لم يقل شيئاً.. انتهت الزيارة وغادرت جمانة وسحر المكان.. وسلكتا الطريق نفسه عائدتين من حيث دخلتا..

في الطريق لم تتبادلا إلا كلمات قليلة لا معنى لها.. ثم التفتت سحر الى جمانة وقالت: لن أرافقك الى البيت – سأذهب الى شركة الطيران لأرى متى يمكنني أن أسافر.. وسأحجز مكاناً في أقرب طائرة... أومأت جمانة موافقة..

انطلقت سحر في خطوات عجلى ونزقة.. قطعت شارع النصر حتى ساحة الحجاز وانعطفت يميناً حيث يقع مكتب شركة الطيران الفرنسية.. على بعد خطوات من سينما العباسية

سابقاً، والتي أصبحت تعرف الآن بحبس النسوان.. وعلى نفس الخط يقع مركز البريد.. عندما وصلت سحر الى جانب حبس النسوان أسرعت الخطى وفكرت أن المكان لا يحمل مظاهر الحبس.. إنه بناء عادي.. لقد كان صالة سينما.. تذكر سحر عندما افتتحت الصالة.. كانت حينئذ الأفخم والأبهى.. كان عمر سحر حينئذ حوالي ثلاث عشرة سنة، وكان فيلم الافتتاح فيلماً اميركياً بعنوان: شاي وحنان.. أو ربما فندق العرائس لم تعد تذكر تماماً..

قيل لها في مكتب الشركة غداً صباحاً الساعة السابعة تقلع الطائرة كوني في المطار قبل ساعة من موعد الإقلاع..

في المساء جاءت الخالة وداد لتمكث عند جمانة خلال غياب سحر، وجاءت هند يرافقها حازم وولداها مع ابني شقيقتها.. تطوع حازم أن يأتي باكراً في اليوم التالي لمرافقة سحر بسيارته للمطار.

غادرت سحر منزل شقيقتها في الخامسة صباحاً.. صادف أن الكهرباء مقطوعة.. هبطت درجات السلم تتلمس طريقها في دكنة الليل.. وتركت الحقيبة تتدلى من إحدى يديها وتدق

ركبتيها كلما هبطت درجة، وتتلمس باليد الأخرى جدار السلم.. كان حازم ينتظرها في السيارة.. وصلت الى المطار بعد ساعة.. الجو مكفهر.. رمادي.. والمطر ينث نثياً ناعماً ما لبث أن قوي.. وقوي معه هبوب الريح.. صعدت الى الطائرة.. جلس الى جانبها رجل أشيب الشعر في حوالي الخامسة والخمسين من عمره.. أصبحت الساعة السابعة والنصف ولم تقلع الطائرة.. أعلن أن موعد الإقلاع سيتأخر بسبب سوء الأحوال الجوية... وزع المضيفون والمضيفات وجبة إفطار على المسافرين بينما الطائرة ما زالت رابضة على أرض المطار.. عادة مدة السفر بين دمشق وبيروت لا تقتضي تقديم أية وجبة للطعام

كان تناول الطعام مناسبة جيدة لتبادل الحديث مع رفيقها في المقعد..حدثها عن الغرض من سفره الى بيروت.. وعائلته التي تسكن في بيروت.. ونوع عمله.. ومدح سهولة السفر بالطائرة بين البلدين.. وسحر تستمع إليه وتبادله كلمات قليلة..وتصادق على كلامه.. تارة بإيماءة من رأسها.. أو بنظرة تعجب من عينيها.. أو برفع حاجبها اندهاشاً.. انتهى الطعام وأقلعت الطائرة.. والرفيق يتحدث وسحر تستمع وتتمتم ببعض

الكلمات.. دعت المضيفة الركاب الى شد الأحزمة فالطائرة على وشك الهبوط..التفت الرجل الأشيب الى سحر وقال متنهّداً: انتهت الرحلة.. ابتسمت سحر.. وتابع قائلا:لم نشعر بالطريق يقولون إسأل عن الرفيق قبل الطريق..

أنجزت سحر كل ما تقتضيه الغاية من عودتها السريعة الى بيروت.. كانت تعمل بشكل آلي وسريع كأنها دمية أدير محركها.. قدمت لوالديها تقريراً شفوياً عن أحوال جمانة وقضية عاصم وأعلمتهما بالغرض من مجيئها.. أعطاها والدها شيكاً بالمبلغ.. صرفت المبلغ حولته إلى العملة السورية.. سارعت الى الحجز بالطائرة من جديد لتعود من حيث أتت.

في اليوم الثالث لوصولها الى بيروت وقبل مغادرتها ثانية أخبرتها والدتها أن مديرها في العمل قد جاء للزيارة بعد مغادرتها مباشرة في المرة السابقة... أقفلت سحر عائدة إلى دمشق.. تريد أن تنهي هذه المهمة بأي شكل.. باتت جلسة المحكمة قريبة.. تمنت أن تكون النتيجة إيجابية.. ويصدق وعد المحامي.. وتنتفي المسؤولية عن عاصم ويعود هو الى بيته وزوجته وولديه.. وتعود هي الى عملها.. وتعاود سيرة حياتها العادية..

كان حازم بانتظار سحر في المطار.. سفرة مريحة ووصول سريع خال من الهواجس.. فكرت سحر.. أن الأمور ميسرة هذه المرة.. سألت حازماً: متى الجلسة؟ أجاب: غداً..

في اليوم التالي اتصل خلدون هاتفياً وأخبر جمانة أن المحكمة بعد أن التأم جمعها، رفعت الجلسة وتأجلت مدة عشرين يوماً.. فالأدلة غير كافية، والشهود لم يحضروا.. وفهمت منه أن المحامي ليس أكثر من نصاب قبض المقدم.. وأعلن بعد الجلسة أنه لن يستطيع أن يفعل أكثر للقضية.. لا بد من شهادة التجار.. وإبراز إيصالات بقيمة البضاعة.. عندها أي محام يستطيع العمل دون عقبات..

أقفلت جمانة سماعة الهاتف.. وأخذت تتصل بأصدقاء زوجها: عثمان، وعبد الرحمن، واسماعيل.. وراحت تهددهم وتتوعدهم بأنها ستذهب الى المحكمة، وتجر أرجلهم جميعاً.. وكان لعثمان النصيب الأوفر من تهديدها باعتباره هو من أفسد زوجها، وأول من أغراه بطريق بيروت.

وكان خلدون من جهة أخرى يحاول الاتصال بإخوته في الخارج كي يمدوه بالنقود اللازمة لنفقات الدعوة، وما قد

يترتب عليهم دفعه كغرامة.. فتح حساباً في البنك باسمه، كان بمثابة صندوق لمصروفات القضية.. تصب فيه المبالغ المرسلة من الخارج.

واتصلت جمانة من جهتها بإخوتها سعيد وعاطف وحسام في جدة، ومهى في الكويت، وهالة في الدمام، وأحمد في بلجيكا تطلب منهم المساعدة.. وقد اغتنمت هالة الفرصة، وهي الحامل في شهرها السابع، لتخبر أختها سحر أنه من المحتمل أن تضع مولودها قبل موعده الطبيعي، أي قريباً جداً في شهره السابع هذا.. وهي في البلد وحيدة وغريبة وليس معها قريب إلا زوجها.. لذلك طلبت من سحر أن تأتي لزيارتها.. وليس من الضروري أن يتم ذلك في الأيام الأولى للوضع.. ولكن قبل مرور الأربعين.. بعد أن تنتهي من قضية جمانة وعاصم.. وقالت هالة أيضاً: لا شك أن وجودك الى جانب جمانة يعطيها الشعور بالقوة والثقة.. تحس كأن أباها وأمها الى جانبها...

في تلك الأثناء كانت سحر بدأت تحس بالضجر والخوف.. تشعر أنها لا تقوم بأي عمل فعال. كل ما تقوم به هو إضاعة لوقتها.. وعطلة قسرية فرضت عليها... فقط هي تأكل وتشرب

وتنام وتقرأ إحدى الروايات الموجودة في مكتبة شقيقتها... تهرب بالقراءة كي لا تلحظ جمانة ضجرها...

قبيل موعد الجلسة بأسبوع وقع ما أذهب الضجر عن قلب سحر.. شيء فعل في نفسها ما يشبه السحر.. جاء شخص.. وسأل عن جمانة.. وطلب مقابلتها.. وأردف قائلاً وبمنتهى الكياسة إنه لن يأخذ من وقتها أكثر من نصف ساعة.. إستقبلته جمانة.. بينما جلست سحر في ركن منزو واتخذت لنفسها صفة العضو المراقب في هذا الاجتماع.. تسمع وترى دون أن تتفوه بكلمة..

كان مندوب مخابرات الحزب جاء يطرح عليها بضعة أسئلة تتعلق بانتمائها السياسي ورأيها بالحزب والثورة والاشتراكية.

كانت جمانة صريحة وواضحة.. قالت: أنا لست حزبية.. والخلفية السياسية التي أنتمي إليها لستم بحاجة إلى من يعرفكم بها.. أما مسيرة النجاح التي تحققها البلاد في هذا العهد لا يستطيع أحد أن ينكرها أو أن يتجنى عليها... وأنا أكثر ما يعجبني ويؤثر فيّ تأثيراً عميقاً هو العمل الناجح والمتقن.. ولكني إنسان، والانسان لا يستطيع الخروج من جلده، ومع ذلك

ومهما كانت ميولي وعواطفي فأنا لست ممن يفضلون أو يحاولون وضع العصي في الدواليب لكي يعطلوا مسيرة النجاح.. بل على العكس أحب إستمرار هذا النجاح واضطراده ونموه مع الأيام، وإذا أتيحت لي الفرصة لدعمه فلن أتقاعس..

نظر إليها المندوب ملياً وقال وعلى وجهه إبتسامة غامضة: يبدو أنك تحسنين تدبير أمورك.. أرى أنك اجتزت الامتحان بنجاح..

وتابع قائلاً: بعد عشرة أيام من الآن تقدمين أوراقك الى الصحيفة وتقابلين المسؤولين هناك، وتتابعين إجراءات التعيين.

بعد إنصراف الزائر، أسرعت سحر لتهنئة شقيقتها، فهذه خطوة مصيرية بل مفترق أساسي على طريق الحياة.. وهاقد تجاوزته.. العمل أمر مهم جداً في الحياة.. لاشيء يعدل أن يكون للإنسان عمل يرتزق منه، وبيت يستظل بسقفه ويحتمي بجدرانه..

وتابعت سحر: تعرفين أنني أحب عملي وسعيدة به.. ولكن ما ينغّصني أنه ليس ملزماً مما يفقده بنظري المظهر الجدي.. فأنا

أعمل متى أريد.. وأنقطع عن العمل متى أريد.. ثم أعود إليه متى أريد.. أي حسب الظروف.. أشعر أن إرتباطي به عاطفي وليس إرتباطاً قانونياً.. ولكنه من جهة أخرى هو أنسب عمل حسب طروفي الخاصة، وحسب ظروف بيروت الفوضوية..

قالت جمانة: أنا آسفة جداً لاضطرارك الى هذه العطلة القسرية.. أرجو أن تعوضي خسارتك كلها..

أجابت سحر بحسرة: ومتى سيتم ذلك!..من أول الصيف الى آخره.. كانت تتوالى المصائب.. ظروف الاجتياح.. وبعدها جئنا الى دمشق للنقاهة.. وراحة الأعصاب.. وما كدنا نرجع حتى إضطررت أن أسافر من جديد.. وها قد سمعت هالة تريدني أن أسافر إليها حين تضع مولودها... ولا أدري متى ستتاح لي العودة الى العمل المنتظم..

وتابعت سحر قائلة: لقد أخبرتني الوالدة أن مدير عملي حضر إلى المنزل بعد رحيلي في المرة السابقة.. وطبعاً لم يجدني.. أما في هذه السفرة فلم أتصل به لأن المدة التي قضيتها لا تستأهل إزعاجه..

قالت جمانة: جاء ولم يجدك.. ثم توقفت برهة لتلتقط خاطراً مفاجئاً أشرق في تلافيف رأسها.. أتذكرين الحلم الذي حدثتك عنه قبيل عودتكم أنت وأهلك الى بيروت.

أجابت سحر ساخرة: تريدين مني أن أتذكر أحلامك الليلية أيضاً.. قالت جمانة: إني لا أمزح.. لقد قلت لي يومها أن وضوحه ونصاعته يؤكدان أنه يحمل نبوءة ما..

بدا على سحر أنها بدأت تتذكر الحلم.. فتابعت قائلة: أجل تذكرت.. جاء المدير ولم يجدني واستيقظت أنت مذعورة لأنه لم يجدني.. وماذا يعني ذلك..

قالت جمانة بعجب: ألا ترين ذلك يعني أي شيء... يعني أن عدم وجودك في البيت وغيابك عنه أيقظني مذعورة لادراكي في اللاوعي أن غيابك كان بسبب المصيبة التي ستحل بعاصم وبالتالي بي وبحياتي.. ولم تتمالك جمانة نفسها فأجهشت بالبكاء..

وارتبكت سحر ولم تدر كيف تهدىء من روع أختها، وكيف تحملها على إستعادة سكينتها، فأسرعت إلى القول: لماذا

أعمل متى أريد.. وأنقطع عن العمل متى أريد.. ثم أعود إليه متى أريد.. أي حسب الظروف.. أشعر أن إرتباطي به عاطفي وليس إرتباطاً قانونياً.. ولكنه من جهة أخرى هو أنسب عمل حسب طروفي الخاصة، وحسب ظروف بيروت الفوضوية..

قالت جمانة: أنا آسفة جداً لاضطرارك الى هذه العطلة القسرية.. أرجو أن تعوضي خسارتك كلها..

أجابت سحر بحسرة: ومتى سيتم ذلك!..من أول الصيف الى آخره.. كانت تتوالى المصائب.. ظروف الاجتياح.. وبعدها جئنا الى دمشق للنقاهة.. وراحة الأعصاب.. وما كدنا نرجع حتى إضطررت أن أسافر من جديد.. وها قد سمعت هالة تريدني أن أسافر إليها حين تضع مولودها... ولا أدري متى ستتاح لي العودة الى العمل المنتظم..

وتابعت سحر قائلة: لقد أخبرتني الوالدة أن مدير عملي حضر إلى المنزل بعد رحيلي في المرة السابقة.. وطبعاً لم يجدني.. أما في هذه السفرة فلم أتصل به لأن المدة التي قضيتها لا تستأهل إزعاجه..

قالت جمانة: جاء ولم يجدك.. ثم توقفت برهة لتلتقط خاطراً مفاجئاً أشرق في تلافيف رأسها.. أتذكرين الحلم الذي حدثتك عنه قبيل عودتكم أنت وأهلك الى بيروت.

أجابت سحر ساخرة: تريدين مني أن أتذكر أحلامك الليلية أيضاً.. قالت جمانة: إني لا أمزح.. لقد قلت لي يومها أن وضوحه ونصاعته يؤكدان أنه يحمل نبوءة ما..

بدا على سحر أنها بدأت تتذكر الحلم.. فتابعت قائلة: أجل تذكرت.. جاء المدير ولم يجدني واستيقظت أنت مذعورة لأنه لم يجدني.. وماذا يعني ذلك..

قالت جمانة بعجب: ألا ترين ذلك يعني أي شيء... يعني أن عدم وجودك في البيت وغيابك عنه أيقظني مذعورة لادراكي في اللاوعي أن غيابك كان بسبب المصيبة التي ستحل بعاصم وبالتالي بي وبحياتي.. ولم تتمالك جمانة نفسها فأجهشت بالبكاء..

وارتبكت سحر ولم تدر كيف تهدىء من روع أختها، وكيف تحملها على إستعادة سكينتها، فأسرعت إلى القول: لماذا

البكاء الآن!.. المفروض أن تفرحي.. إن الله سبحانه وتعالى لا يغلق باباً حتى يفتح غيره.. أحمديه واشكريه أنك ستتوظفين.. وتحصلين على عمل.. وأي عمل.. ليس في أي مكان، بل في مؤسسة حكومية وهذا يعطيك شعوراً بالأمان ويضمن لك دخلاً ثابتاً ويجعلك على المدى البعيد تستفيدين من الضمان الاجتماعي والطبي وغيره.. وحتى إذا تركنا مسألة العمل جانباً فإن والدك موجود أطال الله عمره وقد ترك لك تحديد المبلغ الذي يلزمك سواء توظفت أم لا.. لأن الراتب قد لا يكفي.. وستستلمينه شهرياً من وكيله السيد نبيل.. لا تخافي فهو لن يدعك تحتاجين أحداً.. إلى أن يفرجها الله، إن شاء الله.

سكتت جمانة قليلاً وعادت الى القول والدموع في عينيها:ولكن.. عاصم.. ماذا سيحل به.. إنني أفتقد وجوده بيننا.. لا يحس المرء بقيمة النعمة التي يرفل فيها الا عند زوالها.. لقد طلبت من خلدون وحازم أن أحضر جلسة المحاكمة المقبلة.. ولكنهما نصحاني بعدم الحضور.. قالا إنني لن أحتمل رؤيته.. عندما يحضرونه الى المحكمة بسيارة السجن ونزوله منها مقيداً مغلول اليدين،وسيره بين الجموع والشرطة تحيط

به.. وقالا أيضاً: إنه هو نفسه لن يرضيه أن تقع عيناك عليه وهو في تلك الحال..

قالت سحر: على كل حال أنا لن أتركك حتى أطمئن على نتيجة الجلسة القادمة.. وبعد أن تقدمي أوراقك ويصبح إستلامك الوظيفة أمراً مؤكداً.. وتابعت سحر قائلة: وحسب تقديري أن أربعين هالة سيحل بعد رأس السنة.. مما يتيح لي قضاء تلك الليلة مع الأهل في بيروت.. وبعدها أعود لاستئناف رحلاتي السندبادية ومهماتي غير المستحيلة.

- ١٤ -

ستة أشهر ونصف الشهر.. بأيامها ولياليها.. قضاها كل من جمانة وعاصم بعيدا أحدهما عن الآخر.. ساعة بساعة ودقيقة بدقيقة.. كأنهما في برزخين منفصلين.. لا يعرف أحدهما ماذا حل بالآخر.. ماذا فعلت هذه المحنة في دخيلة نفسه..ماذا كسرت وحطمت.. وما الذي أعادت تكوينه..

إستلمت جمانة العمل في الصحيفة.. وانسجمت مع عالمها الجديد.. ومع مجموعة العاملين رئيساً وزملاء وزميلات.. أحبت الجو.. وأسعدها التقدير والإعجاب بمواهبها.. عرفت طعم النجاح والانتصار على الذات.. قبضت الراتب وفرحت به مع أنه لا يفي بحاجات الحياة اليومية، ولكن هذه المسألة كانت محلولة بالمبلغ الذي يدفعه لها والدها شهرياً..

تأقلمت مع الأوضاع الجديدة.. وعرفت كيف تتعايش مع

الألم لفراق الزوج والرفيق.. الذي لم تنس قضيته.. وفي يوم جاء خلدون وقد حمل لها بعض المؤونة للبيت وسألها إن كانت تريد شيئاً آخر.. شكرته وقالت: كل ما أريده منك أن تواصل العمل لإخراج عاصم .. أريدك أن لا تمل مهما طال الانتظار وأن لا تتراجع أمام ضربات الفشل.. وأن لا تسرقك هموم حياتك اليومية،وتحملك على نسيانه.. لا تظن أن العمل يغنيني عن وجوده بجانبي.. حاجتي له ليست مادية إن وجوده الى جانبي يحول العمل خارج البيت من كدح ومسؤولية ثقيلة الى رفاهية وترف..

حتى أن جمانة عندما رأت خالتها وهي تبكي، وكثيراً ما كانت تفعل ذلك، منذ أن جاءت للإقامة عندها بعد رحيل أختها سحر، قالت لها:

– أرى أن وجودنا في مكان واحد لن يجر علينا إلا البكاء والعصبية، ويجعلنا ندرك يوماً بعد يوم نفاذ حيلتنا وقصر يدنا تجاه قضية عاصم... لذلك أرى أن تذهبي وتقيمي عند خلدون.. فوجودك عنده ورؤيته لك باكية وحزينة سيحثانه على العمل الجاد.. والسعي بهمة للوصول الى نتيجة إيجابية.. أما

مختلفة.. فيهم اللصوص والقتلة وتجار الممنوعات..

أغرب قصة سمعها عاصم كانت قصة الشاب الذي قتل أمه وأخته ودفنهما في حديقة صغيرة خلف الدار وزرع فوقهما البطاطا.. لم يعد يذكر سبب الجريمة.. كل ما يذكره هو نعومة ملامحه وبراءة نظرته وحسن سلوكه في السجن حتى أصبح هو المشرف على كافتيريا السجن، التي تؤمن طلبات السجناء.. شاي، قهوة، مشروبات باردة، دخان..

ثلاث وعشرون جلسة..كانت المدة الفاصلة بين جلسة وأخرى تطول مرة بسبب العطلة القضائية.. ومرة بسبب تغيير هيئة المحكمة وما يقتضيها من إعادة دراسة القضية.. والعودة الى نقطة الصفر.. والبدء من جديد.. ومرات بسبب نقص الأدلة.. وغياب الشهود..وغيرها بسبب نصب واحتيال بعض المحامين الذين تناوبوا على إستلام القضية.. يأخذ أحدهم مقدم الأتعاب ويختفي، بعد بذل الوعود القاطعة بأن القضية ستنتهي على خير.. ومرات بسبب تأخر وصول المساعدات من الأهل والأقارب المغتربين..

بين الحين والآخر تداهم عاصماً سورة قلق.. تنغل في أعماقه..

ترى هل أهله يعملون حقيقة من أجل إخراجه أم أنهم نسوه.. وتعودوا على غيابه.. يتذكر إبنيه الصغيرين... ربما نسيا ملامحي.. سنهما الصغيرة.. لا تسمح لهما إلا بالنسيان السريع.. جمانة.. زوجتي العزيزة.. شقت طريقها، ونظمت حياتها بعيداً عني.. إنها تعمل.. ربما لم تعد بحاجة ماسة لوجودي...

تعيده إلى واقعه ضحكات صاخبة يطلقها رفاقه السجناء إستجابة لنكتة ماجنة يلقيها أحدهم.. في دكنة الليل..

كلما إقترب موعد جلسة من الجلسات الثلاث والعشرين تتسرب السخونة الرطبة إلى شرايينه، يعاوده الشعور بالدوار.. لو يصدر الحكم.. فقط لو يصدر.. وتنتهي طريق الآلام هذه.. لم يعد يهم بنوده وحيثياته.. المهم أن يصدر الحكم.. وتنمحي براري الترقب والانتظار..

* * *

ستة أشهر ونصف الشهر منذ إجتمع عاصم بجمانة آخر مرة..

صدر الحكم: يفرج عن عاصم عبد الباقي لأنتفاء المسؤولية.. ويغرم مبلغ خمسماية ألف ليرة سورية.. تدفع على أقساط خلال

- وهي تعمل منذ عام ١٩٧٥ حتى كتابة هذه السطور «في مركز الدراسات في العالم العربي المعاصر» التابع لجامعة القديس يوسف – بيروت. والمركز يصدر كتاباً سنوياً بالانكليزية تزوّده الكاتبة بمقالة أو مقالتين عن أدباء عرب معاصرين بالاضافة إلى العمل التوثيقي اليومي الذي يتناول النشاط الثقافي الشامل ويغطي بلدان المشرق العربي ومغربه كافة.
- أصدرت مجموعتين شعريتين:

* **شراع بلا مرسى** – ط ١ عام ١٩٧٣ ، ط ٢ عام ١٩٨٥.
* **ترنيمة للحرب والبراءة** – ط ١ عام ١٩٨١.

قصائد المجموعتين نشرت في مجلة **الأديب** البيروتية تحت اسم مستعار هو سلافة العامري وقسماً منها نشر أيضاً في مجلة **الآداب** ومجلة **الموقف الأدبي**. وذلك بين عامي ١٩٦٣ – ١٩٧٨.

- تنشر بين وقت وآخر دراسات في النقد الأدبي وتاريخ الفكر الإسلامي في المجلات المتخصصة التالية: **الباحث** – **الطريق** – **الآداب** الصادرة في بيروت وفي **الموقف الأدبي** الصادرة في دمشق.